

تدريس مادة تاريخ شمال إفريقيا والممالك الأمازيغية في العصور القديمة بالجامعات المغربية

تنسيق : مصطفى أعشي

المراجعة والإعداد للنشر : المحفوظ أسمهر

2010

تدريس مادة تاريخ شمال إفريقيا والممالك الأمازيغية في العصور القديمة بالجامعات المغربية

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

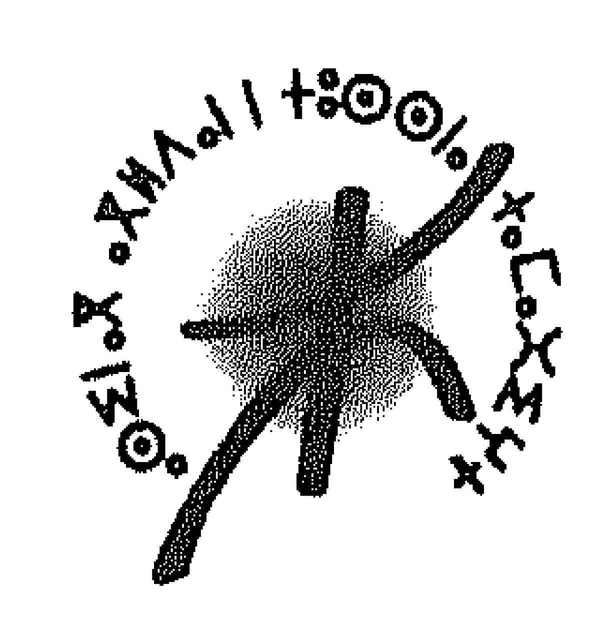
سلسلة الندوات والمناظرات رقم : 23

العنوان	: تدريس مادة تاريخ شمال إفريقيا والممالك الأمازيغية في العصور القديمة بالجامعات المغربية
التنسيق	: مصطفى أعشي
الإعداد للنشر	: المحفوظ أسمهر
الناشر	: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
تصميم الغلاف	: وحدة النشر
صورة الغلاف	: فارس أمازيعي منقوش على لوحة صخرية بالجنوب المغربي، وأمامه الملك الأمازيغي صوفاكس في صورة فارس، على عملته.
إخراج وطبع	: مطبعة المعارف الجديدة - الرباط/2010
رقم الإيداع القانوني	: 2010 MO 1764
ردمك	: 978 - 9954 - 28 - 056 - 0

المملكة المغربية

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية



ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ

ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ ⴰⴳⵍⴷⴰⵏ

ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ

ⴰⵎⵎⴰⵙ ⵏ ⵜⵖⵓⵔⵉⵡ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴷ ⵜⵡⵏⴰⴹ

سلسلة الندوات والمناظرات رقم :23

تدريس مادة تاريخ شمال إفريقيا والممالك الأمازيغية في العصور القديمة بالجامعات المغربية

ⴰⵙⵙⵖⵔ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⵏ ⵉⵥⵥⵍⵎⴹ ⵏ ⵉⴼⵔⵉⵇⵢⴰ
ⴷ ⵡⵉⵏ ⵜⴳⵍⴷⴰⵢ ⵜⵉⵎⴰⵣⵉⵖⵉⵏ ⴳ ⵉⵣⵎⴰⵣ
ⵉⵇⴱⵓⵔⵏ ⴰⵎⵎⴰⵙ ⵏ ⵜⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵜⴰⵎⵖⵔⵉⴱⵉⵜ

- التنسيق : الأستاذ مصطفى أعشي

- الإعداد للنشر : المحفوظ أسمهر

فهرس المحتويات

ورقة عمل اليوم الدراسي

شرعت الجامعات المغربية مع بداية الموسم الجامعي 2004-2005 في تطبيق الإصلاح الجامعي الجديد، إذ اعتمدت شعب التاريخ بكليات الآداب والعلوم الإنسانية مسلك التاريخ والحضارة. وخُصصت الوحدة الأولى من هذا المسلك لتدريس مادة التاريخ القديم لشمال إفريقيا، وتتضمن ثلاثة مجزوؤات وهي: **الحضارة البونية-الأفريقية، والممالك الأمازيغية، والاحتلال الأجنبي.**

كما تزامن تطبيق هذا الإصلاح مع إحداث **المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية** وما خلقه من نقاشات فكرية حول التاريخ والحضارة الأمازيغية داخل الجامعة المغربية، أفرز مجموعة من الاجتهادات حول الموضوع. وكانت لهذه النقاشات تأثير إيجابي على تدريس هذه المجزوؤات الجديدة.

وبعد سنة ونصف من العمل بالمقرر الجديد، تبين أنه من الضروري تنظيم لقاء وطني بين الأساتذة الذين يُدرسون هذه المواد قصد توضيح الرؤى، وتبادل الخبرات والتجارب، بخصوص مادة تاريخ شمال إفريقيا والممالك الأمازيغية في العصور القديمة بالجامعات المغربية.

ولدراسة كافة جوانب الموضوع، يقترح مركز الدراسات التاريخية والبيئية التابع للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية تنظيم يوم دراسي يساهم فيه أساتذة باحثون من ذوي الاختصاص من مختلف الجامعات المغربية.

ونقترح كمحاور عامة لهذا اللقاء العلمي:

1 - وضعية تدريس مادة تاريخ شمال إفريقيا والممالك الأمازيغية في العصور القديمة، وأهميته في المقرر الحالي وبالجامعات المغربية على الخصوص؛

2 - تحديد المفاهيم والإشكاليات التاريخية الخاصة بالمرحلة؛

3 - اقتراحات وتوصيات.

مصطفى أعشي

منسق اليوم الدراسي

اللجنة العلمية:

- محمد حمام
- الحسين اسكان
- مصطفى أعشي
- عبدالله صالح

السكرتارية:

- أمينة أزركَي

مادة التاريخ القديم بالجامعة المغربية بين النظام القديم ونظام LMD الجديد

ذ. حليمة غازي - بن ميس
كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط

موضوع هذا المقال هو التغيير الذي حصل في مقرر مادة التاريخ القديم بين النظامين القديم والجديد (أي الإصلاح LMD)، ووضع مادة تاريخ شمال إفريقيا القديم فيهما على مستوى الإجازة وذلك من حيث الغلاف الزمني وعناوين المواد والمضمون.

I. الغلاف الزمني:

أ. في النظام القديم:

كان الطالب يتلقى في كل مساره الجامعي (السلكين الأول والثاني) والذي يستغرق مدة أربع سنوات ما يلي:

- السنة الأولى من السلك الأول : ساعتان x (24 أسبوعا سنويا) = 48 ساعة؛
- السنة الثانية من السلك الأول : ساعتان x 24 = 48 ساعة؛
- السنة الأولى من السلك الثاني : ساعتان x 24 = 48 ساعة؛
- السنة الثانية من السلك الثاني : 0 ساعة.

المجموع 48 x 3 = 144 ساعة.

يلاحظ أن سنة التخرج خالية من مادة التاريخ القديم. كما أن حصصه تشكل نسبة 18٪ بدل 25 من مجموع الغلاف الزمني الذي هو 792 ساعة.

ب . في النظام الجديد أو الإصلاح (LMD):

جاء النظام الجديد بنظام السداسيات. ويستغرق السداسي أو الفصل مدة 16 أسبوعا دراسيا. فيما تمتد الإجازة على ستة فصول، أي ثلاث سنوات.

- السداسي الأول : تشغل مادة التاريخ القديم خلال السداسي الأول غلافا زمنيا يتراوح ما بين أربع ساعات ونصف وست ساعات كل أسبوع، حسب الجامعات، وذلك على امتداد 16 أسبوعا. مما يعطينا مجموعا يتراوح ما بين 72 و96 ساعة. يمثل الغلاف الزمني المخصص للقديم ربع الغلاف الزمني العام لكل السداسي (= 25%)؛
- السداسي الثاني: لا وجود للقديم فيه؛
- السداسي الثالث: يتلقى الطالب خلال هذا الفصل مواد القديم في غلاف زمني يتراوح ما بين 3 و 4 ساعات أسبوعيا مما يعطينا مجموعا يتكون من 64 ساعة في الفصل؛
- السداسي الرابع: عدد الساعات المخصصة للقديم تساوي صفرا؛
- السداسي الخامس: يدخل القديم في هذا السداسي بحصة السدس، بدل الربع، أي بما مجموعه 12 ساعة بدل 18 س؛
- السداسي السادس :عدد الساعات المخصصة للقديم تساوي صفرا.

يلاحظ في هذا النظام الجديد أن عناوين الوحدات والمجزوءات يمكنها أن تحتوي على حصص لمواد القديم، منها مجزوءة "تاريخ الفن" ووحدة "التاريخ المحلي". إلا أن تقلص عدد أساتذة القديم بجميع الجامعات المغربية عامة وجامعة محمد الخامس خاصة يجعل من المستحيل التطلع إلى تغطية جزء القديم من هذه المواد.

II. العناوين:

أ. في النظام القديم:

- السنة الأولى من السلك الأول لدينا 48 ساعة مخصصة لمادة "الشرق القديم ومصر"؛
- السنة الثانية من السلك الأول نجد 48 ساعة مخصصة لتاريخ "اليونان والروم"؛
- السنة الأولى من السلك الثاني 48 ساعة لتاريخ "شمال إفريقيا القديم".

يلاحظ أن حصص التاريخ القديم هذه لا يحظى فيها تاريخ شمال إفريقيا إلا بثلث الزمن أي 48 ساعة، وهو ما يمثل نسبة 06٪ من مجموع الغلاف الزمني للمواد التي يتلقاها الطالب المغربي في مادة التاريخ بالجامعة. وإذا علمنا أن الطالب يصل إلى الجامعة وهو يجهل كل ما يتعلق بتاريخه القديم، يتبين مدى تكريس هذه الظاهرة على مستوى الجامعة.

ب. في النظام الجديد:

- السداسي الأول: تم تخصيص الغلاف الزمني لوحدة تحمل عنوان "شمال إفريقيا القديم". تدرس ضمن هذه الوحدة مجزوءات ثلاث : "الحضارة الإفريقية البونية"، "الاحتلال الأجنبي" و "الممالك الأمازيغية"؛
- السداسي الثالث: المواد المقررة في هذا السداسي والتي لها علاقة بمادة العصر القديم هي "الرسوم الصخرية" و"المواقع الأركيولوجية ما قبل إسلامية" و"مدخل إلى علم الآثار". إلا أن ما يجب الإشارة إليه هو أن هذه المادة الأخيرة يمكن أن تهم الوسيط كما يمكن أن تخصص للقديم. إلا أنه حاليا، ورغم أهميتها، فهي لا تدرس في كلية الآداب بالرباط وذلك لعدم وجود من يغطيها؛
- السداسي الخامس: دراسة الوثائق والشواهد الميدانية.

II. المضمون:

أ. في النظام القديم:

□ مادة الشرق القديم:

من المفروض أن يشمل الدرس المخصص للشرق القديم ومصر المحاور التالية: حضارة بلاد ما بين الرافدين (السومريون، البابليون...)، حضارة آسيا الصغرى (الحيثيون، الميتانيون...)، حضارة الشام وفلسطين (ألآشوريون، والأوغاريتيون والفينقيون والممالك اليهودية والآرامية)، حضارة الميديين والفرس... وبطبيعة الحال حضارة مصر القديمة. لكن الملاحظ هو أنه يتم التركيز على حضارات بلاد ما بين الرافدين (العراق) ومصر القديمة، في حين يتم إهمال الحضارة الفارسية، ويفرض الحظر التام على تاريخ فلسطين ما قبل الإسلام.

لقد سبق لي أن قدمت دروسا في هذا المستوى ولاحظت مدى استعداد الطالب الفكري والنفسي لتلقي كل ما هو إيجابي حول تاريخ هذه المنطقة. فالطالب يتلقى هذه المادة وهو يشعر بالفخر لكل ما هو إيجابي ويتذمر بل يرفض كل ما هو سلبي حول هذه المنطقة. فهو يتعامل مع تاريخ هذه الأقطار التي تبعد عنه بحوالي 5.000 كلم وكأنه تاريخ جزء من بلاده. بل وأكثر من ذلك، فقد يقبل أن يصور تاريخ أرضه بطريقة منحطة ولا يقبل ذلك لتلك البلدان.

وفي ما يتعلق بمصر بالخصوص فالملاحظ هو أن الطالب المغربي يأتي بتصور وكأن هذا البلد عبارة عن جزيرة مفصولة عن باقي أراضي إفريقيا عامة وشمالها وسكانه الأمازيغ خاصة. وعندما يتم تذكيره أن حضارة مصر حضارة أيثيوبية (زنجية) – أمازيغية (بيضاء). وعندما يدرك أنه ليس هناك محيط أطلسي ولا هادئ ولا جبال الهيمالايا تفصل بين مصرالنيل وباقي المجال الأمازيغي الواقع غرب هذا الوادي، وأن الطريق مباشر والطوبوغرافيا مستوية، وأن سكان مصر لم ينبتوا من النيل كما تنبت الطحالب من الوديان، وأن كثافة وجودهم بالوادي راجع إلى توافدهم في ما بعد الألفية الثانية عشرة حيث بدأت فترة الجفاف، وأنه بشكل طبيعي التجأ سكان المنطقة الغربية الآهلة بالسكان[1] إلى الوادي منذ عصور ما قبل التاريخ إلى حيث الماء أي إلى شريط النيل، فإنه يدرك أن الحاجز بين الأمازيغ ومصر وحضارتها لا يوجد إلا في مخيلته.

فكل العلماء يقرون أن إفريقيا هي مهد الإنسانية وخزان للبشرية. والجميع يعلم أن شمال إفريقيا امتداد طبيعي لأرضها وبالتالي مجال لانتشار سكانها قبل عبورهم سواء إلى القارة الأسيوية أو الأوروبية.[2] وليست المواقع الأركيولوجية المتعددة لحضارات ما قبل التاريخ بشمال إفريقيا والمسترسلة على طول الزمن إلا دليلا على الكثافة السكانية الهائلة بشمال إفريقيا واسترسال تسلسل أجيالها قبل أن تطأ أقدام البشر آسيا وأوربا. أما جعل الشرق الأوسط، وهو الجزء الغربي لآسيا،

(1) مواقع ما قبل التاريخ نادرة بمنطقة شرق وادي النيل بالمقارنة مع التي تقع غربه مما يدل على مدى كثافة السكان في هذه الجهة بالمقارنة مع تلك.

(2) الأوربيون بعيونهم الزرقاء وشعورهم الشقراء يؤمنون أن أرض إفريقيا هي أمهم في حين تجد الشرقيين بعيونهم السوداء وشعورهم المجعدة ولونهم الأسمر يتهربون من هذا الواقع.

منطلقا لانتشار البشرية فليس إلا ضربا من الخيال تم اقتباسه من اليهوديات. ورغم هذه المسلمات فلو قيل لهؤلاء الطلبة إن سكان مصر القدماء قد قدموا إليها من سوريا أو لبنان أو العراق أو اليمن أو حتى من الربع الخالي لشبه الجزيرة لما كان لذلك مقاومة تذكر لتقبل الفكرة رغم عدم صحتها علميا. وهذا يبين مدى استعداد الطالب، بسبب ما لقن له خلال مساره التعليمي وما تم مطرقته به (marteler) من خلال وسائل الإعلام، لتقبل، وبكل سهولة بل وغبطة، أن المشارقة هم من صنع الحضارة المصرية وأن الغربيين، الذين ينتمي هو إليهم، لا يمكنهم أن ينشئوا حضارة من هذا المستوى؛ ذلك لأنه يؤمن إيمانا راسخا بعقم الشعب الذي ينتمي إليه. فغاب عن علمه بل وغُيّب عن علمه أن أروع الحضارات ما قبل تاريخية كان مسرحها بلاد المغارب وأن أول عملية جراحية في تاريخ البشرية (10.000 سنة قبل الميلاد) كانت من عبقرية أجداده الأمازيغ.

لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن والذي من حق أي أحد أن يطرحه هو: إذا كان الشعب الأمازيغي هو الذي بنى (مع الشعب الأيثيوبي) حضارة وادي النيل، فلماذا لا نجد حضارة بنفس الكثافة بشمال إفريقيا والتي يسكنها نفس العنصر؟ الجواب وبكل بساطة يكمن في الفرق الموجود بين الظروف الجغرافية والمناخية لشريط النيل وباقي شمال إفريقيا وما ينتج عن ذلك من تكدس للبشر في منطقة أو تشتته في أخرى. وبما أن الحاجة هي أم الاختراع، فقد نتج عن الازدحام تنظيم المجتمع واقتصاده كما تولد عن ضيق الرقعة تنظيم تقسيم الأراضي والبناء في العلو العمودي. وللحفاظ على هذا النظام والتنظيم كان لابد من حكم قوي ومطلق. والحكم المطلق لا يمكنه أن يتأتى إلا باعتماده على ركيزة القدسية والإلهام الإلاهي ركيزة يصعب على كل من هب ودب النيل منها. وكما يعلم الجميع، فعلى عكس ما هو واقع بشريط النيل وبكل مناطق حضارات الوديان حبيسة الجفاف، فإن شمال إفريقيا ينعم بمناخ معتدل وبتنوع الفصول. ويعرف الشتاء والثلج والربيع والصيف والخريف. ويتمتع بتنوع التضاريس من جبال وسهول وهضاب وكثبان رملية. كما يتميز بانتشار الأراضي الخصبة والسواقي والوديان الدائمة الجريان والعيون ومنابع المياه المتعددة. وينعم بغنى ثروته الحيوانية والنباتية وغاباته وصحاريه. كل هذا أدى إلى تشتت الإنسان، وبالتالي إلى تفتت حضارته. فتلكم نعمة كان فيها نوع من النقمة.

والنقمة العظمى تكمن في كون هذا البلد كان مجلبا لشعوب جائعة[3] جاءت تحت غطاء أعذار مختلفة[4] إلى البلد لملء بطونها ونهب الخيرات[5]، في حين لا يسجل التاريخ القديم أي ميل للأمازيغ إلى التوجه نحو مناطق أخرى لاستعمارها. وهذا راجع وبكل بساطة إلى الغنى الذي يزخر به بلدهم. فلا الشجاعة تنقصهم ولا الخيل ولا الرجال ولا النساء ولا الفرسان ولا حنكة قاداتهم. وكتب التاريخ مليئة بأخبار ملاحم فرسانهم. ولم يكن ينقصهم إلا الحاجة.

وللمتمعن في الأشياء يمكن ملاحظة أن القاعدة الحضارية لمصر وباقي العالم الأمازيغي واحدة، لكن التطور مختلف حسب تكيف الإنسان مع الظروف الطبيعية التي يعيش بها. فاللغة المصرية كما يشهد بذلك العلماء، أخت للأمازيغية. وأسماء العديد من ملوك مصر القديمة وآلهتها أسماء ذات فونية ومعنى أمازيغيين[6]. أما الإلاهة ثينيت (أوتَنيت) والتي قد تكون هي من أعطى الاسم للأسرتين الأوليين والإلاه آمون المنتشرة عبادته بين المصريين القدامى فلا أحد يمكن أن يجادل في أمازيغية أصلهما. وما المقابر الركامية المخروطة الشكل والأضرحة المخصصة للملوك الأمازيغ في المناطق الواقعة غرب مصر سوى شكل من أشكال الأهرام (هرم اغرم المسكن أو أغرّم البناء الحجري) في مراحلها المصطبية الأولى[7]. لكن الطريقة التي يتم بها تقديم تاريخ المنطقتين، أعني مصر وباقي شمال إفريقيا، تجعل الطالب المغربي، بل والمغربي بصفة عامة، يفصل فصلا تاما بين الحضارة المصرية الشمال إفريقية وباقي شمال إفريقيا وينبهر لمصر ولتاريخها ويقابل ذلك

(3) الكل يعرف الوضعية الاقتصادية لفرنسا وخاصة منطقة اللورين أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر.

(4) لأنه من الممكن جدا أن يصدّر الإنسان حضارته وتعاليم دينه دون غزو ولا احتلال. وهذا ما قام به المسلمون بأندونيسيا وبكل دول الشرق الأقصى.

(5) فمن يستطيع أن يغامر في أراضي أقوام لا علاقة له بهم و يترك بلده وأهله ويقتل أو يموت وينهب ويسلب خيرات الغير ويستولي على أراضيه ويستقر بها مرتاح الضمير سوى الجائع أو المريض نفسيا. وأتعجب لكون كتب التاريخ تمجد هذا النوع من التصرف وتقدم الغازين وقادتهم في صورة تجعل الإنسان العادي ينبهر بهم وبأعمالهم وبعد ذلك يتساءلون لماذا يوجد الظلم والعنف وهم لا يتوقفون عن تمجيده.

(6) يبدو أنه كان من الصعب على المصريين القدماء النطق بالغين. فكانوا يستبدلونها بالعين أو الهاء. شأنهم في ذلك شأن العبرانيين الذين، وتحت تأثير نطقهم، أصبحت العديد من الكلمات الأمازيغية ذات الغين تنطق باستعمال حرف العين. ولا يستبعد أن تكون كلمة "راع مساس" في الأصل "راغ و(إ)مساس" = الذي "ينتسب للإلاه راغ" أي ابن راغ (ابن قرص الشمس). ويكون لفظ فرعون الذي يعني "الدار الكبرى" والذي يشير إلى القصر وأهله مشكل من "(إ) فر" (الكهف أو المغارة أي المسكن) و "غون" (من شد أو قفل) والكل قد يعني "باب المسكن" أو "المسكن المسدود أو المحفوظ".

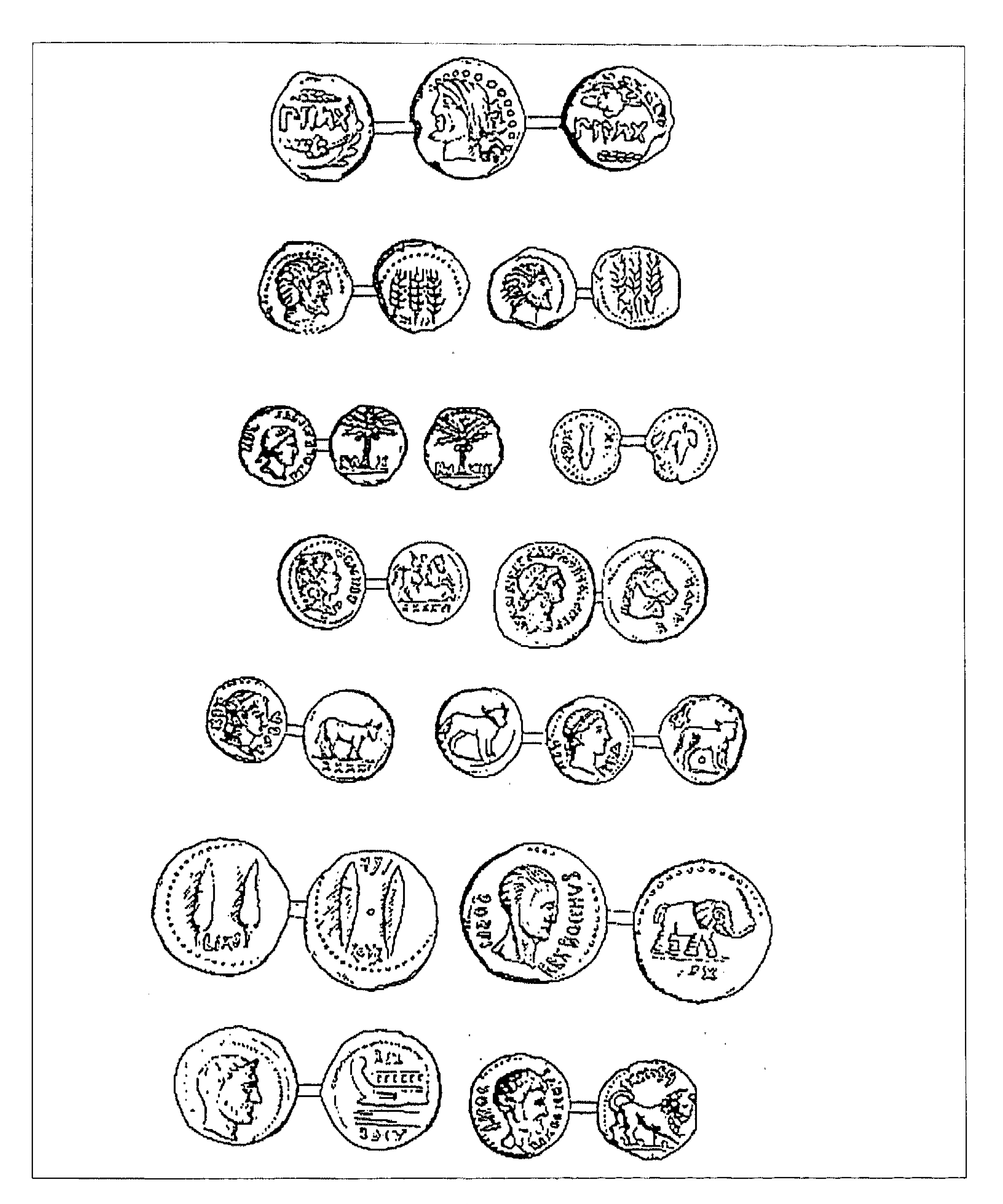
(7) سقارة وهي مدينة الأموات عند المصريين، تُذكّرنا بكلمة "سَقَرَا" أي الهلاك أو الموت عند الأمازيغ. وقد يكون اسم المدينة في الأصل هو أسْقارْ (آسْغارْ) من إقّورْ، كلمة تعني التجفيف وهو الغاية المنشودة من عملية التحنيط التي كانت تتم بالموقع نفسه.

باحتقاره لتاريخ بلده، مع أن المتمعن في تاريخ "أم الدنيا" يكتشف أن هذا البلد لم يحكم نفسه بنفسه وبصفة مسترسلة من القرن الرابع قبل الميلاد حتى ثورة يوليوز 1952. فقد مرّت أرض "الكنانة" من الحكم المقدوني (الذي أدخل نظام التعامل بالنقود بها وآخر ملوكه كيليوباترا اليونانية) إلى السيطرة الرومية فالبيزنطية ثم الحكم الأموي من دمشق فالحكم العباسي من بغداد، فحكم الطولونيين ثمّ الإخشيديين فالأمازيغيين الكتاميين والمعروفين بالفاطميين فأيوبيي الكردي صلاح الدين، فالمملوكيين، فالعثمانيين، ففرنسيي نابوليون بونابارت، فأسرة محمد علي الألباني الأصل فالإنجليز. وبالمقابل نجد المغارب بصفة عامة محطة لاستقرار الإنسان منذ مليوني سنة قبل الميلاد ومركزا لحضارات هائلة وإنتاج حضاري في منتهى الروعة لما قبل وما قبيل الفترة التاريخية وأرض أول ظاهرة للتضامن المجتمعي (أنظر ما كتب حول مجتمع تافوغالت). فبين سكانه ظهر الأدباء والفلاسفة والقصاصون والفلكيون وعلماء الدين والمناطقة والخطباء أمثال تيرانتيوس الإفريقي (القرن 2 قبل الميلاد) الذي عاش رهينة بروما وتعلم لغتها فأصبح شاعرا وأديبا تؤرخ بأعماله بداية الأدب اللاتيني وميكيبسا الملك الأمازيغي الذي شاخ ومات على عرشه وهو يدرس الفلسفة وفرونطو الفيلسوف، أستاذ الإمبراطور الشهير ماركوس أوريليوس، وأبوليوس صاحب أول إنتاج نثري توفرت فيه عناصر القصة من حل وعقد وتشويق في تاريخ البشرية جمعاء ويوبا الثاني الموسوعة المتنقلة، الملك العالم والباحث المشهور. أما من حيث نظامهم السياسي، فقد نظم سكان المغارب الأولين أنفسهم في إطار مملكات شاسعة الأطراف. وسك ملوكهم نقودا يرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد في وقت لا تزال معظم الأمم في الشرق والغرب تتعامل بالمقايضة.(8)

وفيما يتعلق بالمغرب، بالخصوص، فقد ظهر هذا البلد على شكل مملكة منذ قرون قبل المسيح، امتدت أطرافها منذ نهاية القرن الثاني وبداية الأول قبل الميلاد من المحيط وجزر كاناريا إلى نهر الأمبساكا أي إلى حدود قسنطينة بالجزائر

(8) مثال ذلك الأمم التي كانت تعيش على أراضي اليمن والحجاز والعراق وفلسطين وفرنسا وإسبانيا وانجلترا وغيرها التي انتظر بعضها مجيء روما ليدخل تحت نظام عملتها.
أما معرفة مصر بنظام النقود والتعامل بها فلم تكن مبادرة داخلية، فاليونانيون اللاجيديون، أجداد كيليوبترا هم من أدخله إليها.

الحالية. وسك ملوكها نقودا أصلية وأصيلة لا مثيل لها في عالم ذلك الوقت نحتت عليها رموز تذكر بخيرات البلاد الفلاحية والصناعية، مما يبين أنها نبعت من رحِم هذه الأرض وعن عبقرية ملوكها العظام.



نقود الملوك المغاربة الأمازيغ القدامى

وكما تشهد أحداث التاريخ، فإن المغرب هو آخر من خضع لروما وأول من استقل عنها وهو الذي استعصي على الوندال والبيزنطيين وأول من أستقل عن التبعية للشرق. والمغرب بلد الإمبراطوريات العظمى المرابطية والموحدية والمرينية والسعدية والعلوية وقد استعصى على الأتراك الذين امتدت سيطرتهم من الخليج حتى الجزائر في إفريقيا وحتى فيينا في أوروبا. لكن الطريقة التبهيتية التي يتم بها تقديم تاريخنا تجعل الطالب المغربي، بل المغربي بصفة عامة، يشعر وكأنه لا تاريخ له. ونظرا للعقلية السائدة في بلادنا والتي تريد أن يجب الإسلام ما قبله[9]، وذلك طبقا لفهمها المغلوط لهذه العبارة[10]، وعلى خلاف ما قامت به الأمم الإسلامية الأخرى[11]، تم طمس تاريخنا القديم وصرنا مثلنا مثل السودان الإفريقي الذي لكي يكون مسلما، أهمل آثار ثاني فروع الحضارة الفرعونية التي امتدت من أرضه[12] وصار تاريخ أمتنا، ودون تاريخ الشعوب، مُقعدا (cul jatte) يبدأ من القرن الثامن بعد الميلاد مع فرد واحد فر من بطش المشارقة ورحب به الأمازيغ. حتى أن الإنسان يحمد ربه أحيانا عن كون الفرعون ليس مغربيا لأنه لو كان كذلك، نظرا لما جاء من ذمّ حوله في القرآن الكريم، لتم رميه في المحيط هو وأهرامه. وعلى عكس ما تقوم به كل الأمم[13] في سياستها التعليمية والإعلامية حيث تتملك كل وافد على أرضها وتركز على الجانب الإيجابي من تاريخها[14]، نجد المغاربة يتسابقون وبسرعة فائقة لنسب حضارات تبلورت على أرضهم لجهات خارجية[15]، متبرئين من علمائهم

(9) العبارة تعني أن الفرد يبدأ صفحة بيضاء بمجرد اعتناقه لهذا الدين الحنيف.

(10) القرآن الكريم مليء بالتاريخ القديم وقصص الشخصيات والأقوام السابقة التي تتخذ كمظة للحاضر والمستقبل

(11) مثل مصر والعراق وسوريا و إيران. اهتمام البلد الأول بتاريخه القديم معروف. وكذلك شأن البلد الثاني الذي مازال يُطلق اسم عشتار وهي إلاهة الخصوبة والراعية لطقوس "الدعارة المقدسة" على مباني عمومية مثل الفنادق . والبلد الثالث مازال يستعمل الشهور البابلية والآشورية: كانون الثاني (= يناير)، شباط، آدار، نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول، تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول (= دجنبر)، يذكرونها بموازاة مع الشهور الرومية - المسيحية (يناير، فبراير، مارس...) ولا ذكر عندهم لأسماء الشهور العربية الإسلامية الهجرية. أما إيران فلازال عابدو النار يتمتعون بحرية ممارسة طقوسهم بها، بل ويحضر أعيادهم كبار مسؤولي الدولة.

(12) العارف بشؤون التراث السوداني يعلم الإهمال الكبير الذي أصاب الأهرام والآثار القديمة الموجودة على أرض هذا الشعب المعروف بالأيثيوبي في المصادر القديمة والذي ساهم بكيفية هائلة في إنشاء الحضارة الأيثيوبية - الأمازيغية وهي الحضارة المصرية.

(13) كم هو عدد العلماء القزوينيين والفارسيين والروميين والأكراد الذين أصبحوا في ذاكرة العرب عربا. وهكذا تصنع الأمم تاريخها.

(14) أنظر كيف تتم دراسة تاريخ مصر وفرنسا مثلا .

(15) مثال ذلك الأرقام المعروفة بالعربية والتي ينزعج المغاربة عندما يقال لهم إنها أرقام مغربية رسمت في عهد الموحدين. ولم يسبق أن تم تداولها في المشرق سواء في العصر القديم أو الوسيط أو الحديث أو حتى المعاصر. وحتى اليوم، فهي لا تستعمل هناك بل و تنعت بالأرقام الغربية.

ناسبينهم، وبنشوة كبرى، لشعوب تنتمي جغرافيا إلى مناطق أخرى جاعلين من أنفسهم مهاجرين على الدوام مذكرين أبناءهم على الدوام أن هذه الأرض ليست أرضهم في الأصل بل وهناك من يحتفظ بمفاتيح منزل أجداده بالأندلس ينتظر بدون شك يوم العودة مستصغرين تاريخهم ومعظمين تاريخ الآخرين. وكأنهم عندما يسافرون يجرون وراءهم بريق تاريخ وحضارة تلك الجهات.

□ مادتا الروميين والإغريق :

كانت مادة تاريخ الروميين[16] تتناول تاريخ النظم (institutions) السياسية والعسكرية والدينية وتطورها بروما وعالمها ويصحب ذلك التحول السياسي الذي عرفته روما بانتقالها من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري ومن هذا الأخير إلى النظام الإمبراطوري. وخلال ذلك يتم تحليل الأسباب والنتائج. وما لاحظته، من خلال تجربتي، أن هذا الدرس لا يترك أثرا في عقول الطلبة. وعلى عكس ذلك نجدهم يهتمون بتاريخ اليونان والتحولات التي عرفها النظام من الحكم الأرسطقراطي إلى الحكم الديموقراطي مرورا بالحكم الطغياني. وقد لاحظت خلال تدريسي لهذه المادة كم من تشويه أصاب صورة هذا الحكم الأخير. فهذا الحكم الذي هو فردي فعلا، كان حكما لصالح الشعب وضد الأرسطقراطية. وبما أن الثقافة كانت آنذاك من نصيب أبناء هذه الفئة، فقد قام المثقفون منهم، أمثال أفلاطون وأرسطو وهم المؤمنون بالتراتبية الاجتماعية وقداستها[17]، بتشويه هذا النظام الذي قدم الشيء الكثير للمجتمع اليوناني. أما الديموقراطية اليونانية فما كان يفاجئ الطلبة في شأنها هو نسبيتها، وذلك لكونها لا تشرك في عمليتها السياسية سوى حوالي 10٪ من المجتمع. فإذا استثنينا النساء (وهن حوالي 50٪)

---

(16) مصطلح" الروميين "لنعت سكان روما ومن يدور في فلكهم هو الأصح وليس مصطلح "الرومانيين" الشائع التداول بين الباحثين العريفونيين. لأن كلمة Romanus وجمعها Romani هي نفسها صفة مركبة من Roma اسم المدينة و nus أداة النسبة ويقابلها في العربية لفظ الرومي وجمعها روميون وإلا وجب القول إطالياني Italianus وليس إطالي والكالياني Gallianus بدل الكالّي أو الغالّي والإفريقاني Africanus بدل الإفريقي. ونعت سكان القسم الشرقي من إمبراطورية روما، أي البيزنطيين، رغم كونهم في الواقع يونانيين، بالروم أو الروميين في القرآن الكريم ومن طرف العرب القدماء دليل على وجاهة ما قدمناه.

(17) فانتماؤهم الفئوي جعل هؤلاء العلماء يشوهون هذا النظام الفردي فعلا، لكنه عادل. كما شوّهوا السفسطائيين لكونهم يعلمون أبناء "البورجوازية " الناشئة مقابل أجر فلم يعد العلم مقصورا على أبناء الأرسطقراطية. ولكونهم كذلك آمنوا أن القوانين وضعية و أنها تتغير حسب المجتمعات وحسب الزمان و المكان على عكس أرسطو ومن يدور في فلكه والذي يضفي نوعا من القداسة على التراتبية الاجتماعية ويراها من وحي الطبيعة و"أن العبد عبد بالطبع و السيد سيد بالطبع" ولا يجب تغيير هذا الوضع. وهذا الجانب من فكر وعقلية أرسطو يجهله طلبة التاريخ والذي لا يعرفون عنه سوى أنه رجل حكمة ومنطق.

وغير البالغين، والعبيد، والأجانب فلا يبقى في حلبة السياسة سوى نسبة قليلة جدا من الرجال الأحرار البالغين الميسورين[18]، قد تصل أو لا تصل إلى 10٪.

□ مادة شمال إفريقيا القديم:

لم تكن هذه المادة في الواقع مقررة في البرنامج من طرف واضعيه وذلك تبعا لسياسة طمس جانب من جوانب تاريخنا. وهكذا كان الطالب المغربي سيدرس تاريخ الشرق القديم ومصر واليونان والروم فقط، أي يتعرف على تاريخ الأمم شرقا وغربا دون أن يقوم ولو بإطلالة على تاريخه. وما حصل أنه تقرر داخل الشعب أن تحول حصص خانة شمال إفريقيا المخصصة أصلا للغرب الإسلامي إلى شمال إفريقيا في العصر القديم. وهكذا أصبح الطلبة يعرفون على الأقل أن بلدهم كانت أرضا يابسا في القديم وتجري عليها أحداث قبل الوسيط، يسكنها أناس أريد لهم أن يأتوا من الشرق رغم أنف المنطق[19] ونتائج الحفريات العلمية[20]. فقد ظلت[21] برامج الدولة المغربية[22] تحشو عقول المغاربة بأفكار مغلوطة حتى أصاب الضرر عقل المغربي الذي يشعر بالدوام أنه على أرض ليست في الأصل أرضه وأصبحت قضايا الشعوب التي يتم تذكيره دوما بأنه منها اسبق له من قضايا شعوب الأرض التي يتعايش معها. وظنا من واضعي هذه البرامج أن التاريخ تاريخ الشعوب وعلما منهم أن عروبة أصل الأمازيغ لا تزيد عن كونها خرافة، فإنهم يقومون بطمس تاريخ الفترات التي سبقت التاريخ الحقيقي للهجرة الوحيدة المؤرخة لقبائل عربية وهي

---

(18) لا يمكن للعامل والمياوم اليونانيين أن يسمحا لنفسهما بقضاء النهار بالأكورا (agora) والتذاكر في الشؤون السياسية: لأن عملهما طيلة اليوم هو مصدر عيشهما .

(19) لا يمكن منطقيا لشعب عظيم مثل الشعب الأمازيغي أن ياتي من رقعة ضيقة مثل اليمن. كما لا يمكن للكثير أن يأتي من القليل. فالطرح إيديلوجي إذن بل و فولكلوري.فهذا لا يمكن أن يصدر إلا من جاهل أو متحايل و لا يمكن أن يصدق إلا من طرف أحد أعمته الإيديولوجيا أومن ساذج. فكيف لأرض اليمن التي لا تتجاوز مساحتها 482680 كلم مربع و ساكنتها اليوم، رغم تقدم الطب لا تتجاوز ثلثي ساكنة المغرب الحالي، أن تصدّر عددا من البشر أعطى اليوم 180 مليون نسمة؟ وكيف لأرض اليمن التي لم يظهر الإنسان عليها إلا منذ 24.000 سنة أن تصدر الإنسان إلى القارة الإفريقية التي تأكد للعلماء أنها مهد الإنسانية والتي يعود ظهور الإنسان بها في شخص "توماي "ببلاد تشاد الأمازيغية إلى سبعة ملايين سنة؟ وكيف لمغرب يشكل امتدادا طبيعيا لأرض إفريقيا و الذي يعود ظهور الإنسان به إلى ما يقرب من مليون سنة، أن يعمّر من طرف أناس قادمين من أرض لم يظهر الإنسان فيها إلا منذ 24.000 ؟ أما في ما يتعلق بأوربا فقد تأكد علميا أننا نحن الأفارقة الذين صدّرنا الإنسان إليها ولازلنا نفعل حتى اليوم.

(20) فاليمن، هذا، الذي يجعلون منه أصل سكان شمال إفريقيا، لم يظهر فيه أثر للإنسان إلا في الألفية الرابعة والعشرين أي بعد ظهوره بمليونين وسبع مائة سنة على أرض المغرب.

(21) أكدت الحفريات والدراسات البليانتولوجية وجود حضارات على أرض المغرب و بالتالي وجود أصحابها منذ الأوسترالوبيتيك.

(22) لقد تعجب لهذا الإلحاح العالم العبقري ابن خلدون حيث يتساءل لماذا هذا الإلحاح على دراسة أصل الأمازيغ دون غيرهم من الشعوب.

هجرة قبائل بني هلال وبني سليم وبني معقل. أما الأحدوثة التي تقول عن الأصل اليمني للأمازيغ فهي نتيجة تعميم لأصل عائلات إفريقية ذات جد فينيقي على جميع الأمازيغ. والدليل على ذلك هو أن الذين ذهبوا من الأندلس للبحث عن أصل أجدادهم لم يتوقفوا لا عند سكان المغرب الأقصى ولا الأوسط لمعرفة ذلك وإنما تحملوا عناء السفر حتى إفريقية[23]. وهذه العائلات الفينيقية[24] التي اختارت موقع قرطاجة لاستقرارها امتزجت وانصهرت في العدد الهائل للعنصر الأمازيغي حتى صارت المصادر تسمي أفرادها بالأفارقة واللبوويين. إلا أن هذه العائلات، وبعد مرور أزيد من أربعة عشر قرنا (من 814 ق م إلى 650 بعده) والتي أصبحت، بحكم العدد، أمازيغية بيولوجيا وغربية جغرافيا، احتفظت في ذاكرتها، بفعل معتقدات المجتمع الأبيسي (Patriarcal) أنها شرقية جاء أجدادها، الذكور بطبيعة الحال، من اليمن عبر الشام. وبما أنها كانت تسمى إفريقية فقد تم تعميم هذا الأصل الشرقي، المتعلق بأبناء حفنة من المهاجرين، على كل الأفارقة أي سكان أفريقا (Africa) وهي تونس الحالية بما فيهم الأصليين أي الأمازيغ. وهذا خلط أول. أما الخلط الثاني فيتمثل في تعميم اسم الأفارقة الذي كان يشير إلى سكان أرض تونس، وبالتالي تعميم الأصل الشرقي، على كل سكان شمال إفريقيا والصحراء عامة. وبقينا نجتر هذا النوع من الحكايات ونذكر المغاربة أنهم معمرون لأرض ليست في الأصل أرضهم. هذا في حين نجد الفرنسيين والإيطاليين والإسبان يمرون مرور الكرام على أصولهم الأسيوية ويركزون على العمق التاريخي للأرض التي يعيشون

(23) وأرسلوا، يقول عبيد الله صالح بن عبد الحليم، "جملة من فقهائهم حتى وصلوا أفريقيا فاجتمعوا مع ذي السن منهم، فكتبوا لهم ذلك الكتاب" في أنسابهم أنظر: عبيد الله صالح بن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**، مخطوط بالخزانة العامة مسجل تحت رقم 1275، عن علي صدقي أزايكو، **تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة**، مركز طارق، الرباط، 2002، الهامش 46، ص. 126.

(24) وما الفينيقيون أنفسهم سوى شعب نزح من اليمن في بداية الالفية الثانية ليستقر بالشاطئ الشرقي للمتوسط ويختلط بالكنعانيين. وليست الموجات البشرية التي كانت تخرج من اليمن، ومن ضمنها الفينقيون، سوى أقوام هاجرت عبر باب المندب من مهد الإنسانية إفريقيا وصحرائها الأمازيغية التي تضمّ بلاد تشاد موطن توماي أقدم هيكل عظمي بشري على الإطلاق (سبعة ملايين سنة). لقد أخذت هذه الموجات تستوطن أرض اليمن منذ أربعة وعشرين ألف سنة قبل أن تنتشر، تحت ضغط وافدين أفارقة جدد، في كل أنحاء شبه الجزيرة. فلاغرابة كذلك إن وجدنا بأرض بني عاد، التي من المعتقد أن تكون باليمن، مدينة ذات العماد (القرآن الكريم، سورة الفجر) تحمل اسم إرم، وهو اسم يذكرنا بكلمة إهرم أو إغرم التي تفيد نفس المعنى. ولا غرابة أيضا أن نجد تطابقا في بعض أنماط العيش والعادات (كحمل الخنجر أو الشلحاء والولع بالتجارة وطريقة استغلال جذع شجر التنّينية (Drakéna ou Dragonnier) بين أهل اليمن والأمازيغ، لأن أولائك ليسوا إلا فرعا من هؤلاء وليس العكس. أما وجود من يتكلم بالأمازيغية، إن وجد فعلا، باليمن فهذا يمكن أن يكون ناتجا عن رحيل عائلات أمازيغية لقضاء مناسك الحج ثم بدل الرجوع إلى البلد فضلت الاستقرار هناك.

عليها كما يعملون دوما على التضامن بين العناصر المتواجدة عليها[25]. ولم نسمع يوما أن هذه الدول تضامنت مع شعوب السهوب الأسيوية والتي يرجع أصلها إليها ولا ربطت مصيرها بمصيرهم، كل ذلك من أجل تدليل التخندق بين شعوب الأرض التي يعيشون بها.[26] وكل ذلك يؤدي في آخر المطاف إلى تملك الأرض والالتصاق بها وبالتالي حبها ومن تم خدمتها. ذلك أن المغاربة الذين لا يتوقفون صباح مساء عن تذكير أبنائهم أنهم مهاجرون، جاء أجدادهم من المشرق (اليمن أو الحجاز أو فلسطين أوكنعان) أو الغرب (الأندلس) يجعلون من أنفسهم ومن أبنائهم مهاجرين أزليين (des éternels émigrés) يسكنون أرضا غير أرضهم. وهذا لا يمكنه أن يؤدي إلا إلى اهتزاز في الشخصية وإلى إحساس، لا شعوري، بعدم الانتماء لهذه الأرض. وعندما ينعدم هذا الإحساس ينعدم معه حب الوطن وبالتالي خدمته، ويصبح فكر استغلال الأرض ونهبها نهب العابر لضيعة أحل بها هو المسيطر. وينسى أن جيناته حصيلة لجينات كل سكان بلده المغرب[27] وأن أي شيء يحط من تاريخ أي عنصر أو مجموعة تنتمي لهذه الأرض تحط من قيمته هو وأنه عندما يسافر لا يجر وراءه تاريخ الفينقيين أي اللبنانيين ولا اليمنيين ولا الحجازيين ولا العراقيين ولا المصريين وإنما يجر وراءه تاريخ هذه الأرض التي أطعمته من جوع وآمنته من خوف منذ آلاف السنين.

كانت المحاور التي يتم تناولها في هذه المادة تصور قرطاجة، رغم وجودها المادي على الأرض الإفريقية، على أنها دولة أجنبية وبالتالي لا يمكن لحضارتها إلا أن تكون كذلك. وبالإضافة إلى تجريد المنطقة من حضارتها هذه، كانت الدروس التي تتبع خطوات البحث الكولونيالي تغيب دوما العنصر المحلي وحضاراته إلى درجة أن التقسيم الكرونولوجي لا يأخذ وجودهم بعين الاعتبار حيث يتم تقسيم الزمن التاريخي حسب تواجد حقيقي أو خرافي لهذا العنصر الأجنبي أو ذاك.

(25) فلا تجد الأيطاليين، مثلا، يذكرون صباح مساء أنهم أستروكوط جاؤوا من السهوب الأسيوية. ولا تراهم يحاولون ربط مصيرهم وقضاياهم بمصير وقضايا أجداد أجداهم. وتجده يتضامن مع الصقلي ولا يأبه بما يقع للأزباكي.

(26) فلا ترى الإيطاليين ولا الإسبانيين ولا البولانديين ولا الهنغاريين ولا البلغاريين ولا البيلاروسيين الحديثي العهد بالإلتحاق بفرنسا يعيشون مشاكل بلدانهم الأصلية أكثر من مشاكل مواطنيهم الفرنسيين. وكذلك شأن الأمريكي باعتباره في أمريكا أولا.

(27) أهل فاس محاطون بسكان الأطلس من كل جانب ولهجتهم من أكثر اللهجات التي تحتوي على مفردات أمازيغية.

وينقلنا "المؤرخون" من شمال إفريقيا في العهد الفينيقي إلى العهد البونيقي (كذا)[28] فالعهد الروماني (كذا)[29] فالوندالي فالبيزنطي أو فترة ما قبل إسلامية. فيتخيل لك وكأنك أمام أرض خلاء يصول فيها الأجنبي ويجول. وهكذا إلى درجة أن القارئ لهذه الأعمال يخرج، ومن حيث لا يدري، بفكرة أن المغرب كان أرضا خالية من سكانه الأمازيغ وأن من عمّره وقاده هم الأجانب. بمعنى آخر، لم تكن أرض المغرب موطنا لسكانه الأصليين وهم الذين عمروه وبكثافة منقطعة النظير منذ مليوني سنة على الأقل وطوروا فوق أرضه حضارات ما قبل تاريخية رائعة. وتصبح الدهشة أكبر عند اطلاع الفرد على تاريخ عصور ما قبل التاريخ في منطقتنا وتسلسل السلالات بها وتعدد مواقع حضاراتها التي ليست سوى ترجمة لكثافة سكانها منذ أزمنة غابرة، وكذلك عند دراسته للمصادر الأدبية التي تؤكد على خصوبة السكان الأمازيغ وسلامة صحتهم وطول عمرهم وكثرة عددهم ومقارنة ذلك مع أبحاث جل المعاصرين. فـي كل هذه الحالات يتخيل للمرء وكأن هذا القوم العظيم قـد تبخـر فجـأة.

ونسي الكثير من الباحثين ومن ينقل عنهم أن الفنيقيين ليسوا سوى حفنة من البشر غادر جزء فقط منهم موطنهم قبل أن ينتشروا في جزر المتوسط وبعض نقط شواطئه. وأن الروميين لم يضبطوا تحت إدارتهم سوى مثلث زاويته العليا مضيق جبل طارق وقاعدته خط ممتد من سالا إلى وليلي، أي على رقعة لا تتعدى 2 أو 3٪ من مجموع أرض المغرب. والباقي ظل حرا طليقا. أما وجودهم بالمنطقة بنفس الكثافة التي يتصورها الكثير فهذا فيه نظر. فكم من رومي قح قد يرغب في مغادرة ترف روما وألعابها وكم منهم قد يغامر ويتوجه إلى العدد الهائل من الأقاليم التي كانت تشكلها إمبراطوريتهم الشاسعة الأطراف والممتدة من إيران شرقا إلى أنجلترا والمغرب غربا وكم منهم شد رحاله إلى أرض المغرب النائية؟ وكم كان عدد الروميين

(28) كلمة "البونيقي" و التي تمّ تشكيلها بإضافة النعت العربي إلى النعت الفرنسي punique، بحيث أصبحنا أمام نعت منعّت أو ما أسميه بالتنعيت المركب، غير صائبة. والصحيح، هو كلمة "بوني" بل "بوينِي" التي تتركب من اسم القوم Poenus =Poeni وعلامة النسبة أو الصفة في العربية وهي ياء تأتي بعد كسر آخر الكلمة؛ وإلا وجب قول إطاليقي لتقابل Italique وأسبانيقي لتعرّب Hispanique ولقد سبق أن أوضحناه هذا في محاضراتنا لطلبة السلك الثالث ولبعض زملائنا في لقاءات علمية أو منفردة، منذ 1992.

(29) مصطلح روماني يحيل على رومانيا وليس على روما.

والإيطاليين في الأصل حتى يملأوا العالم القديم ويبقى الخير والبركة منهم بشبه جزيرتهم، إيطاليا؟ لقد تمّ كذلك تضخيم حضور العنصر الرومي بمملكة المغرب القديم وهذا شيء مخالف للواقع تماما. ففي ما يتعلق بالجيش المرابط بأراضي المغرب القديم فكله من قوميات غير القومية الرومية. ذلك أن روما، وهذا ستنقله عنها بالحرف فرنسا التي عرفت كيف تستفيد من التاريخ، كانت تغزو شعوبا وتقمع ثوراتها وتحكم قبضتها عليها بجيش من قوميات أخرى. فكما فعلت فرنسا بالأمس عندما أرسلت المغاربة إلى الهند الصينية وجاءت بالسينغاليين إلى المغرب، كانت روما في الماضي ترسل المغاربة إلى فلسطين ومناطق بحوض الدانوب وتأتي بالسوريين والغاليين والإيبيريين إلى المغرب. وهكذا استطاعت مدينة رومولوس السيطرة على العالم القديم مقتصدة دماء أبنائها. أما فيما يتعلق بخلق مستعمرات بمفهومها الرومي، أي إنزال غرباء في موقع ما بإقليم من أقاليم الإمبراطورية، فالكل يعلم، باستثناء بعض الولايات كأفريقا Africa (تونس الحالية) مثلا، أن المنزّلين من إثنيات مختلفة، روميون بالجنسية فقط بعد قضائهم خمسة وعشرين سنة في الجندية. وباستثناء بعض الأفراد من الملاك الكبار والأطر العليا للإدارة وللجيش بالأقاليم والذين يعدّ من بينهم هم أنفسهم عدد كبير من المترومنين، يمكن القول بأن المتواجدين بجل الأقاليم وخاصة إقليم المغرب القديم والحاملين للجنسية وللتسمية الرومية المعبرة عن ذلك ليسوا روميي الأصل. ولو كان كل من حمل الاسم الرومي بإقليم من الأقاليم من أصل رومي أو إيطالي وبالنظر لعدد الأقاليم الخاضعة آنذاك لروما والواقعة على أرض ممتدة من إيران شرقا حتى إنجلترّا والمغرب غربا، لخلت روما بل وشبه جزيرة إيطاليا، التي لم يكن يقاس شعبها بعدد شعب الجمهورية الصينية من سكانها الأصليين. وبالتالي يجب، ومن باب الواقع التاريخي، أن ينظر إلى الوجود الرومي بجل الأقاليم عامة وبأرض المغرب خاصة باعتباره وجودا إداريا أكثر منه بشريا.

أما قضية الرومنة فإن روما لم تفرضها يوما، كما أنها لم تفرض مؤسساتها ولا ديانتها على أحد. وكانت سياستها في هذا المجال تعتمد على الترغيب وليس الترهيب. كان الإغراء يتمثل في الحصول على الجنسية الرومية لأنها تقي من بعض

الضرائب وتفتح أبواب الوظائف العليا. وكان لايتم منح الجنسية إلا لمن يستحقها في نظرهم ومن يرغب فيها. وكان من بين مستحقيها في نظرهم كل من قضى 25 سنة في الجندية وفي خدمة روما. فالكثير من هؤلاء هم من تم إنزاله لتشكيل مدن، عرفت كل منها ب Colonia (المستعمرة)، مؤسساتها نسخة طبق الأصل لمؤسسات روما. وقد شكلت كل منها النواة الأساسية لنشر الرومنة في مختلف الأقاليم.

وهكذا وبتضخيم الوجود الأجنبي يتم تضخيم تأثيره على الحضارة المحلية بل وتتم نسبة كل مظاهر الحضارة إليه. فكل شيء أجنبي بأرض المغرب وشمال إفريقيا إلا الرديء منه. وتم ربط بداية التاريخ بالفينيقيين وأصول التمدين والتقدم الحضاري بسيطرة الروميين. وصار المقاوم الأمازيغي للأجنبي مرادفا للهمجي المحارب لمن يريد أن يخرجه من الظلمات إلى النور والعميل منهم مثل ماسينيسا، هو من أدرك قيمة الحضارة وله قدرة على التفاعل معها. هكذا كُتب ولازال يُكتب ويقرأ تاريخ شمال إفريقيا.

وهكذا، وبناء على هذه النظرة، أصبح من المعتقد أن الفينيقيين أدخلوا المحليين إلى التاريخ والقرطاجيين هم الذين لطفوا من همجية سكان المنطقة والروم حضروهم والعرب أدخلوهم الإسلام والمولى إدريس هو من وضع عقد ازدياد المغرب كدولة. فلم يبق وجود لدور المحليين المفعول بهم دائما. فليس من المستغرب إذن إن تمت صياغة التقسيم الكرونولوجي بدونهم (الفترة الفينيقية الفترة القرطاجية الفترة الرومية الفترة الوندالية الفترة البيزنطية فترة ما قبل الإسلام فترة ما قبل رومية فترة ما بعد رومية وفترة ما قبل إسلامية وفترة إسلامية)، في حين نجد فرنسا والتي كانت أقل حضارة من المغرب عند دخول الروميين إليها نجد ها تسمي فترة تبعيتها لروما بالفترة الكالو- رومية .

ب. في النظام الجديد:

□ مجزوءة الممالك الأمازيغية :

لم تبق كلمة أمازيغ طابوها. وأصبح وجودها بالعنوان نفسه يجعل الجميع من عام وخاص وطالب وموظف يطلع عليها وتألفها أذنه. وقد أخذ هذا المصطلح يحل، لكن

بشيء من المقاومة من طرف بعض "المثقفين"[30]، محل الكلمة القدحية "البربر" (أنظر مقالنا)[31] والمصطلحات المعتمة للأمة الأمازيغية والتي ألفوها وتعودوا عليها مثل الليبيون، النوميديون، الموريون، القرطاجيون، الأفارقة... ويتم بالمناسبة تغييب المصطلح الجامع وهو الأمازيغ. شأن ذلك المصطلحات المموهة المفتتة المشتتة المستعملة في التاريخ الوسيط مثل المرينيون، الزناتيون، الصنهاجيون، المرابطون، المصمودة، الموحدون. ويخرج المغربي دون أن يعرف أن هذه الإمبراطوريات أمازيغية.

كما أصبح معترفا به من خلال العنوان وحده، وقبل الدخول في التفاصيل، أن المجتمع الأمازيغي كان مهيكلا في إطار نظام سياسي وهو النظام الملكي. هذا من حيث العنوان. أما من حيث تفاصيل المادة نفسها فلا يزال بذل المجهود مطلوبا من حيث معالجة الموضوع وذلك للخروج بل التحرر مما رسمته لنا الهستوغرافيا الكولونيالية والتي كان الكثير منها مسخرا لأغراض غير علمية. ولهذا من الواجب القيام بقراءة جدية وعلمية للمصادر لإبراز الجوانب التي أهملتها أو حرفتها الهستوغرافيا الفرنسية عمدا. لا يكفي أن ندلي بمثل هذه الملاحظة في مقدمات مقالاتنا ثم نقوم في وسطها وأسفلها باجترار ما جاء في هذا النوع من الهستوغرافيا.

ففيما يتعلق بالدول مثلا يجب في نظرنا التركيز على مملكة المغرب القديم، ذلك أن الهستوغرافيا الفرنسية قد اهتمت بما فيه الكفاية، لخدمة أطماعها الإستعمارية[32] بمملكة الماسول وعلى ملك واحد من ملوكها وهو ماسينسا. في حين أبهتت مملكة المغرب القديم، بل نجد بعض الدراسات لم تمنح البلاد حتى مصطلح مملكة. وهكذا فلما كتب كاركوبينو كتابه عنونه **بالمغرب القديم**[33]، ولما ألف شاتلان اختار لمؤلفه عنوان **مغرب الروم**[34]. وأصبح الرائج هو الأطروحة القائلة بأن

(30) ولا يزال بعض المثقفين يرفضون استعمال كلمة أمازيغ ويحتفظون بكلمة البربر الجارحة لعواطف أبناء جلدتهم مصدقين تسمية الكتب ومكذبين تسمية الواقع فأصبح ينطبق عليهم المثل العربي "صدق الطبيب وكذبت الجثة".

(31) أنظر مقالنا :

Et si on désignait ces fameux Amazighes par leur vrai nom, dans *Africa Romana*, XVI, 2004 (2006), p.737-756.

(32) والسبب في ذلك هو الرغبة في إبراز، وبكل الوسائل، أن هذا الإقليم ذو هوية منذ القدم وإن كان تابعا للحكم المغربي في عصر من العصور، الوسيط مثلا، قبل المرور تحت السيطرة العثمانية، فهذا لا يعطي للإمبراطورية الشريفة الحق في اعتباره جزءا من أراضيها.

(33) J. Carcopino, *le Maroc antique*, éd. Gallimard, Paris, 1943.

(34) L. Châtelain, *Le Maroc des Romains*, éd. De Boccard, Paris, 1968 (la première éd. 1944).

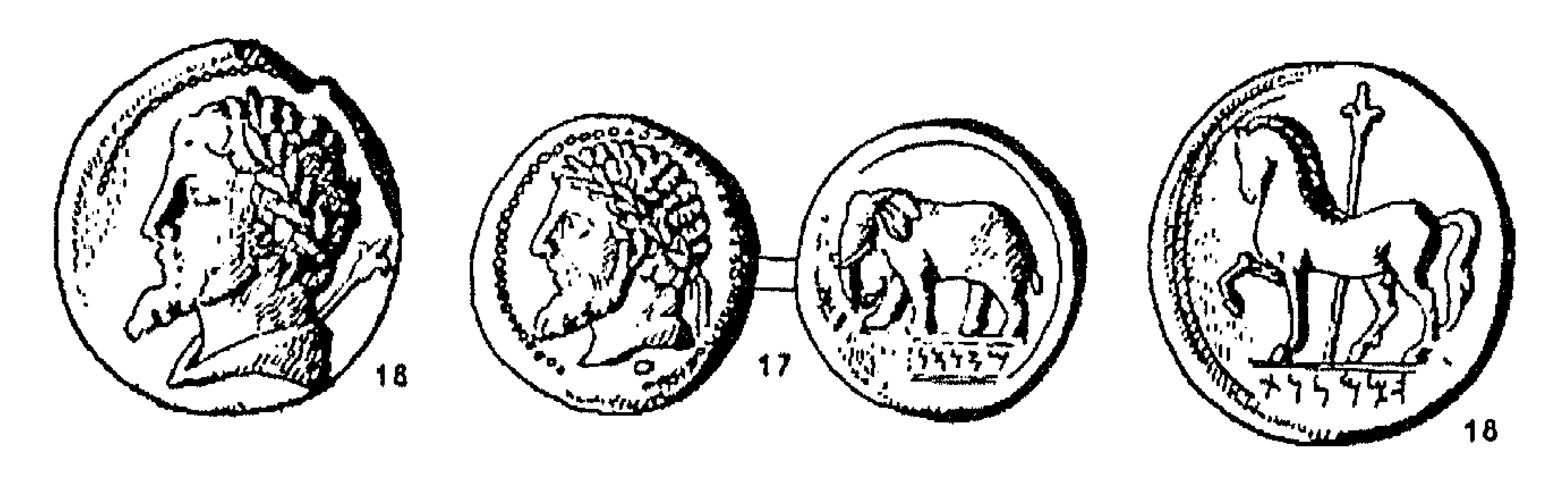
المغرب، كدولة، لم يظهر إلا في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الملاديين وأن بلاد المغرب لم تشهد قبل ذلك إلا نظام القبائل والعشائر. وإذا كتب أن أعتبر مملكة في كتابات البعض فلقول أن حدودها لا تتعدى نهر ملوية ناسية أو متناسية القرون التي وصلت فيها المملكة إلى نهر الأمبساكا. وأنه حين خلق الإقليمان موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية فعلى أساس أنهما جزآن لمملكة المغرب موريطانيا وإسمهما دال على ذلك. هذا في حين يتذكر هذا النوع من الهستوغرافيا المملكة الماسولية التي لم تكن في الأصل، وقبل توسيعها، بمباركة روما المشروطة، على حساب مملكة صوفقس، لم تكن سوى بقعة محدودة الرقعة محصورة بين البحر شمالا وخط يمر بكيرتا جنوبا وممتلكات قرطاجة شرقا والواد الكبير حيث تبدأ مملكة صوفقس غربا.

وفي ما يتعلق بالشخصيات، فقد قامت هذه الهستوغرافيا بتشويه صورة الملوك والزعماء الذين وقفوا في وجه الغزو في حين تم تلميع صورة العملاء لروما وربما ليجعلوا منهم قدوة لأجيال شمال إفريقيا في تعاملهم معها وهي الوريثة لروما. وهكذا تم تقديم ماسينسا على اساس أنه أكبر الملوك الأمازيغ بل وأكبر شخصياتهم على الإطلاق. إلا أن المتمعن في الأمر يكتشف أشياء أخرى.[35] فقد كان ماسينيسا شجاعا إلى حدود التهور وكان قائدا عسكريا فذا وعاش 86 سنة وكان يتمتع بصحة صخرية. وترك وراءه حوالي 50 ولدا بعد مماته، لكن هل هذا يجعل منه ملكا عظيما؟ لا نعتقد. ففي عهده وبسببه بدأت روما تتدخل مباشرة في شؤون شمال إفريقيا حيث أصبحت كل القضايا الترابية والمالية الإفريقية تناقش في مجلس شيوخ روما وتنصاع الأطراف للحلول المقدمة إليها. لقد بقي على كرسي العرش لمدة تزيد على 50 سنة، لكنه لم يفلح في آخرها حتى في تعيين وريث له. وترك مهمة ذلك لروما. لم يكن ماسينيسا ملكا بكل ما في الكلمة من معنى وإنما كان متمتعا بالملك وكان المالك الحقيقي للأرض في نظره هي روما وأنه هو لا يعدو عن كونه وكيلا لها. فقد كان يكرر في كل مناسبة أن أرض مملكة الماسول ملك لروما وأنه هو

(35) أنظر مقالنا: " Masinissa ou le début de la dépendance de l'Afrique Mineure antique" ، **تكريم الأستاذ مولاي رشيد**، تحت الطبع.

لا يزيد عن كونه مدبرها. فأهدى الحبوب والخيل والخيالة لروما وسخرها لغزواتها معتبرا ذلك أقل ما يمكن أن تأخذه روما من ملكها.

وهو الذي أضعف أبناء عمومته و إخوانه وأصهاره، و هم فوق كل هذا وذاك أفارقة قبل كل شيء. ففي عهده وبسببه ضعفت القوة الإفريقية الواقفة دوما في وجه روما وهي قرطاجة التي تربى بها فجعلها طعاما فتح شهية روما. وبدوره الحاسم في القضاء على قرطاجة تظهر محدودية النظر السياسي لرجل الحرب، ماسينسا. فقد أنضج الإجاصة الإفريقية، قرطاجة، وقدمها فوق طبق فتحت بها اللبؤة شهيتها حيث فطرت بقرطاجة وتغذت بمملكة النوميديين وتعشت بالموريين فضربت بذلك موعدا على رأس كل الأربعينيات من كل قرن 146 سقوط قرطاجة و 44 القضاء على يوبا الأول والاستيلاء على مملكته و40 قتل ملك المغرب القديم غدرا ومحاولة السيطرة على بلاده. وهكذا كان ماسينيسا هو من عبد الطريق للهيمنة الرومية على شمال إفريقيا وهو صديقها كما يردد ذلك حكامها، صديق حسب مفهومها للصداقة وهي صداقة مبنية على الطاعة والوفاء لها. هذا هو النموذج الذي تفضل الهستوغرافيا الفرنسية تسويقه بين المغاربيين.



Monnaie de Massinissa (J. Mazard, *Corpus Nummorum Numidiae Mauretaniaeque*, Paris 1955, n° 17 et 18, p. 30).

وعلى عكس ماسينيسا، نجد ملكا آخر والذي يستحق لقب "**الأكليد الأكبر**" "Le grand Aguellid" بقي اسمه مغمورا وهو الملك صوفاقس[36] الملك القوي الذي كان الجميع من روميين وقرطاجيين يسعون لنيل تحالفه. وهو الذي قام بتنظيم

(36) أنظر مقالنا:"Suphax II, le grand Aguellid (Début du dernier quart du IIIème s. avant J.-C. à 203 avant J.-C.)" **تكريم الأستاذ مولاي رشيد**، تحت الطبع.

أول مؤتمر سلام في تاريخ المتوسط جمع فيه القائدين سكيبيو وهاسدروبال معلنا أنه سيكون سعيدا إذا تم وضع حد لإراقة الدماء. وهو الذي التزم الحياد رغم محاولات التقرب منه وإغرائه[37]. وهو الذي كان يردد على مسامع الجميع "فليبق الروميون في بلدهم والقرطاجيون على أرضهم[38] إفريقيا". وهو الذي لم يحارب تحت مظلة أحد ولم يكن يوما ملازما لا لروما ولا لقرطاجة[39]. وهو الذي صك النقود وجلس على العرش قبل أن يحكم ماسينسا وارتدى السلهام الأرجواني رمز الملكية في حوض المتوسط وحمل الصولجان ونظم الجيوش على الطريقة المحلية والرومية قبل أن تولي روما ماسينسا. وهو الذي حكم أرضا تزخر بالمدن والأراضي المزروعة[40] امتدت من مضيق هرقل إلى قورنة قبل أن يتولى ماسنسا الحكم. وهو الذي تعامل مع العالم اليوناني قبل ماسنسا. وهو الملك الذي حظي بالاحترام الشديد حتى بعد إلقاء القبض عليه في ساحة الحرب بعد أن أسقطه حصانه. وهو الذي حظي بالتقدير حتى بعد موته حيث وللمرة الأولى قامت روما بتنظيم مراسيم دفن رسمية لسجين أجنبي. هذا هو الملك العظيم الـذي يستحق أن يسمـى **بالأكليد الكبير.**

(37) وعلى عكس ما كتب فإنه، رغم زواجه بالحسناء صوفونيسبا، لم يدخل الحرب إلى جانب القرطاجيين حتى وطأت أقدام جيوش روما أرض إفريقيا وهذا هو الكاسوس بيلي **كازوس بيلي**. أنظر مقالنا:

"Suphax II, le grand Aguellid (Début du dernier quart du IIIème s. avant J.-C. à 203 avant J.-C.)" **تكـريم الأستـاذ مولاي رشيد**، تحت الطبع.

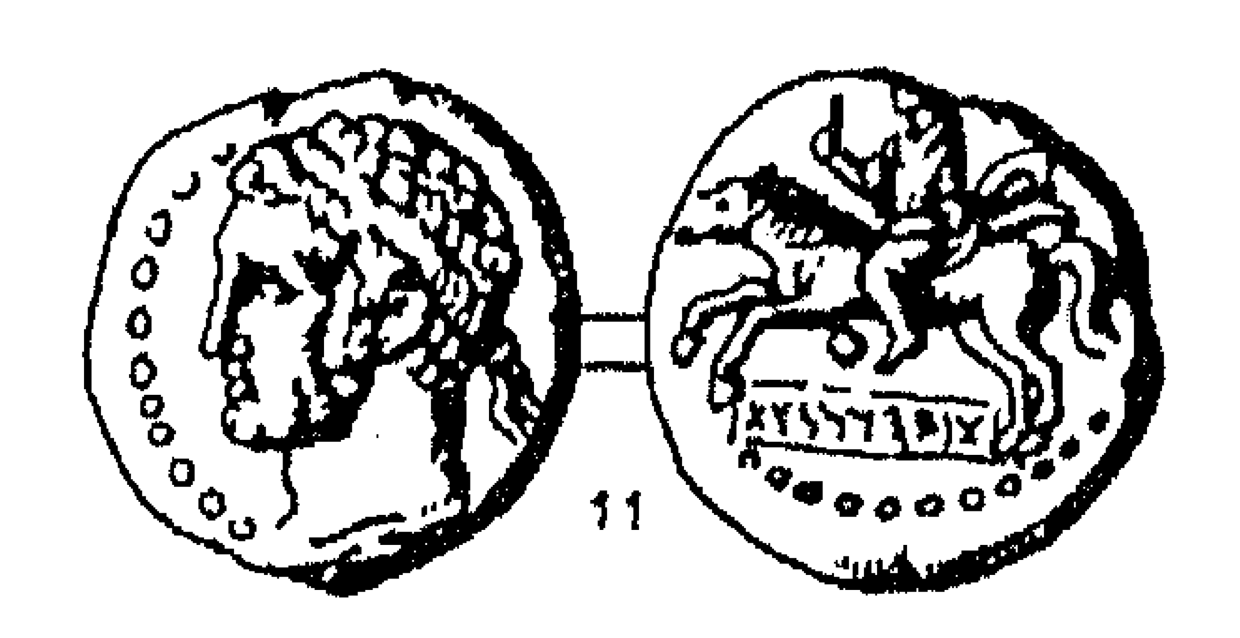
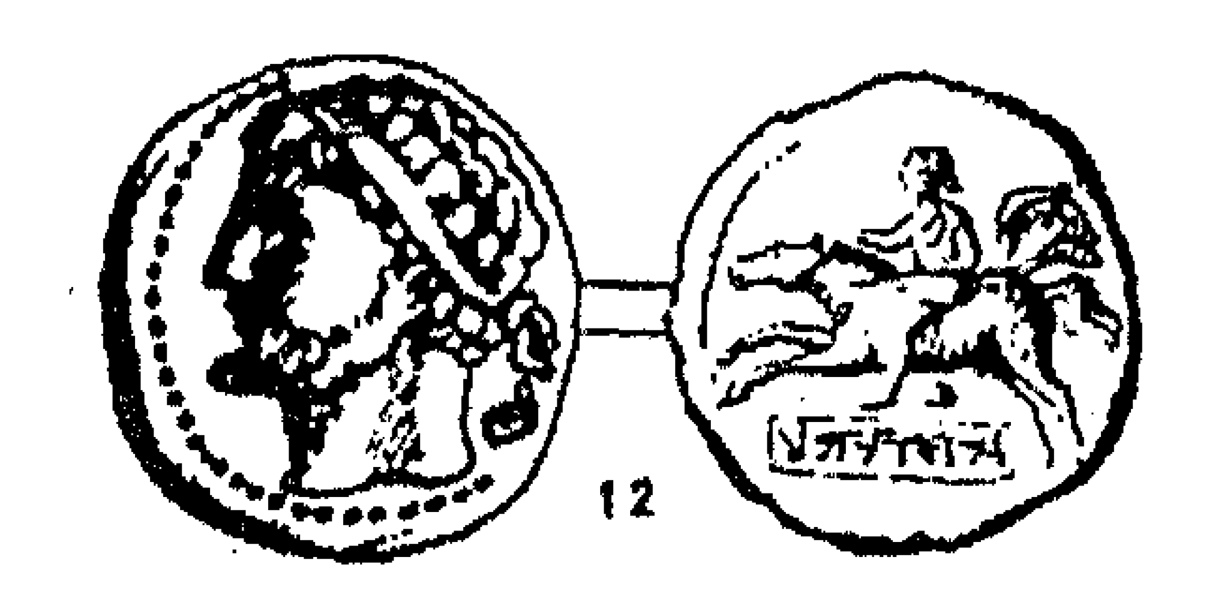
(38) وعلى عكس ماسينيسا فقد كان هذا الملك يتميز ببُعد النظر السياسي حيث كان يعتبر أن قرطاجة قوة إفريقية و أن القضاء عليها من طرف روما سيؤدي حتما إلى القضاء على باقي القوى الموجودة بالمنطقة. أنظر مقالنا:

"Suphax II, le grand Aguellid (Début du dernier quart du IIIème s. avant J.-C. à 203 avant J.-C.)" **تكـريم الأستـاذ مولاي رشيد**، تحت الطبع.

(39) لم يحارب في إسبانيا. وعندما دخل الحرب لحماية إخوانه الأفارقة أنشا جيشه و بقي في معسكره يتفاوض مع الروميين كقائد دولة حتى ذهبت قواته ضحية خدعة الرومي سكيبيو . أنظر مقالنا:

"Suphax II, le grand Aguellid (Début du dernier quart du IIIème s. avant J.-C. à 203 avant J.-C.)" **تكـريم الأستـاذ مولاي رشيد**، تحت الطبع.

(40) اعتبار ماسينيسا معلما للفلاحة للأمازيغ ليس سوى خرافة. أنظر مقالينا: "Masinissa ou le début de la dépendance de l'Afrique Mineure antique" و "Suphax II, le grand Aguellid (Début du dernier quart du IIIème s. avant J.-C. à 203 avant J.-C.)" **تكـريم الأستـاذ مولاي رشيد**، تحت الطبع.

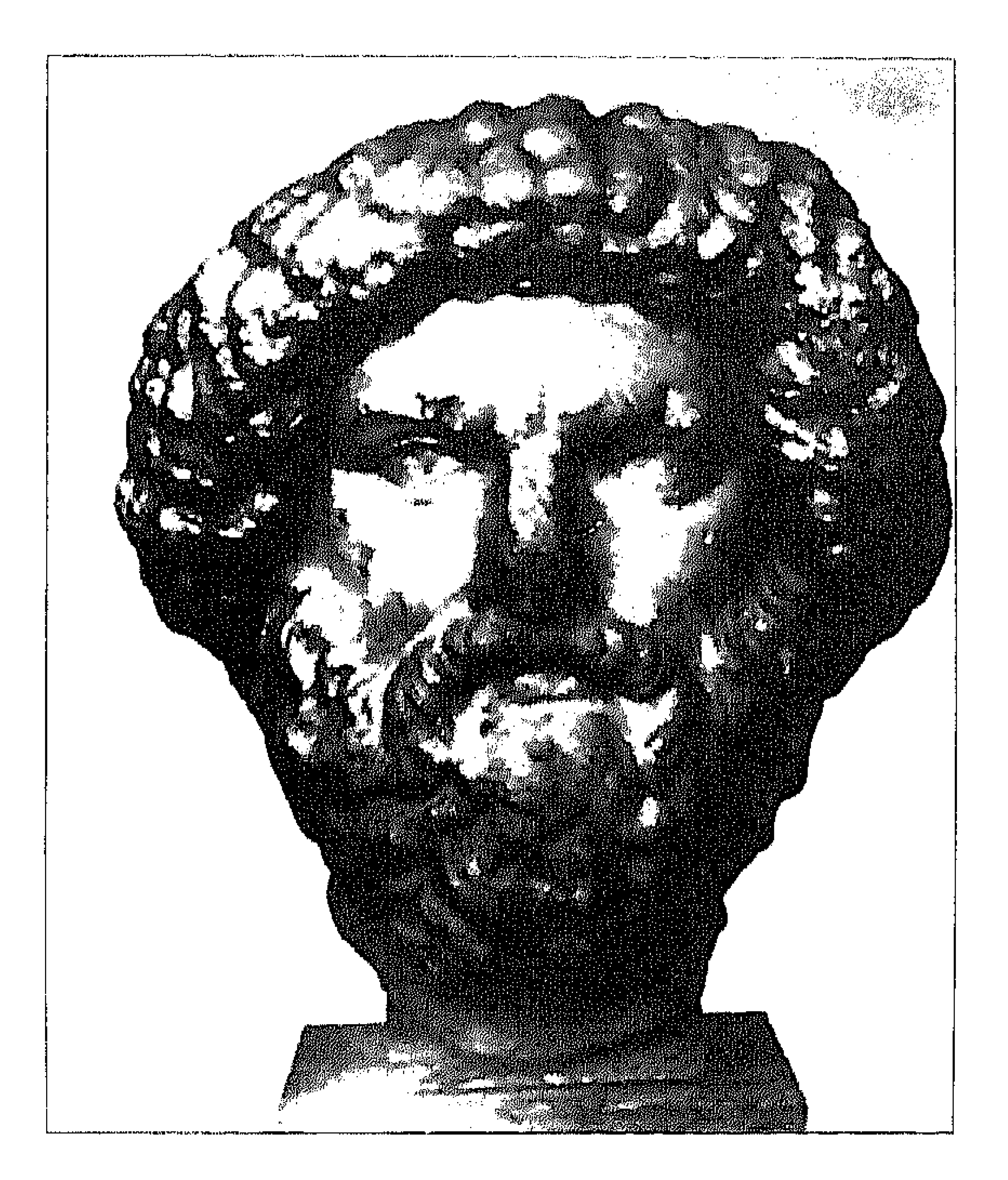
Les monnaies du roi Suphax II
(J. Mazard, *Corpus Nummorum Numidiae Mauretaniaeque*, Paris 1955, n°20

وهذا يوكرثن الملك الذي يطابق اسمه مسماه[41] والذي تم البدء بتشويه اسمه فأصبح يوغرطة[42] بدل يوكَرثن وهو اسم يعني بالأمازيغية "**أكبرهم**" أو"**المتفوق عنهم**" وتم تشويه أعماله أيضا حيث صارت صورة الراشي ملازمة له. ولا يبحث أحد عن أخلاق حامل هذا الخبر وهو سالوستيوس، أكبر المرتشين والذي حوكم بروما لكونه اغتنى بطرق غير شرعية. ويكفي أن نلاحظ أن هذا الشخص الذي يكن للملك عداوة كبيرة يبوح من حيث لا يشعر بأخلاق الأمازيغي العالية. ولم يحتفظ المؤرخون المعاصرون، وذلك حظ كل من وقف في وجه روما، إلا بصورة الراشي والتي ساقها لنا هذا الراشي والمرتشي والذي كان يكن عداء لا مثيل له للأرسطقراطية الرومية ويريد توسيخها. فبقي اسم الملك العظيم مقرونا بالرشوة وكأن ادربال يفيض بالأخلاق الحميدة وهو الوارث لثروة كبيرة ربما أكبر من التي كان يملكها ابن عمه، وهو الذي أعلن غير ما مرة أن الأرض لروما وأنه هو يكتفي بالتمتع بعرشها. فهل هناك رشوة أكبر من هذه؟ وهذا يوبا ألأول الأبي والشجاع والذي لم يدخل الحرب إلا بعد أن وعده البومبيون أنهم سيتخلون له عن مستعمراتهم بأفريقيا والذي يصور بالمتغطرس لا لشيء سوى لكونه يريد أن يكون قائد حرب على أرضه وأن يرتدي بمفرده السلهام الأرجواني رمز القيادة ويمنعها عن القائد الرومي[43].

(41) أنظر مقالنا: Iugurthan ou le *Maximus* (118-105 avant J.C) dans *Hespérs*, Vol. XLI, pp 25-39 2006.

(42) شأنه في ذلك شان أسم "أكْ – سيلا": (= الذي ينتمي لمدينة سيلا) والذي أصبح كُسيْلة.

(43) أنظر مقالنا: Iuba I, (début des années 50 à 46 avant J.-C.) ou le projet avorté de libération de l'Africa, dans *Hespéris*, Sous presse.



رأس تمثال الملك يوبا الأول

وهذا تاكفاريناس الذي كان يحارب من أجل إخراج روما من شمال إفريقيا بأكملها قيل إن حربه، التي امتدت طيلة سبع سنوات، قامت من أجل طلب مجال للرعي وليس تحرير الأرض[44]. وهذا بوكود، الذي تشير كل الدلائل أنه كان ملكا عظيما جعل من مملكته ورشا للصناعة وسوقا للتجارة لعالم ذلك الوقت، وصاحب البنايات المهلّنة الرائعة، بقي مغمورا وتنسب إنجازاته ليوبا الثاني وهو العالم أكثر من كونه الملك[45].

(44) أنظر مقالنا:

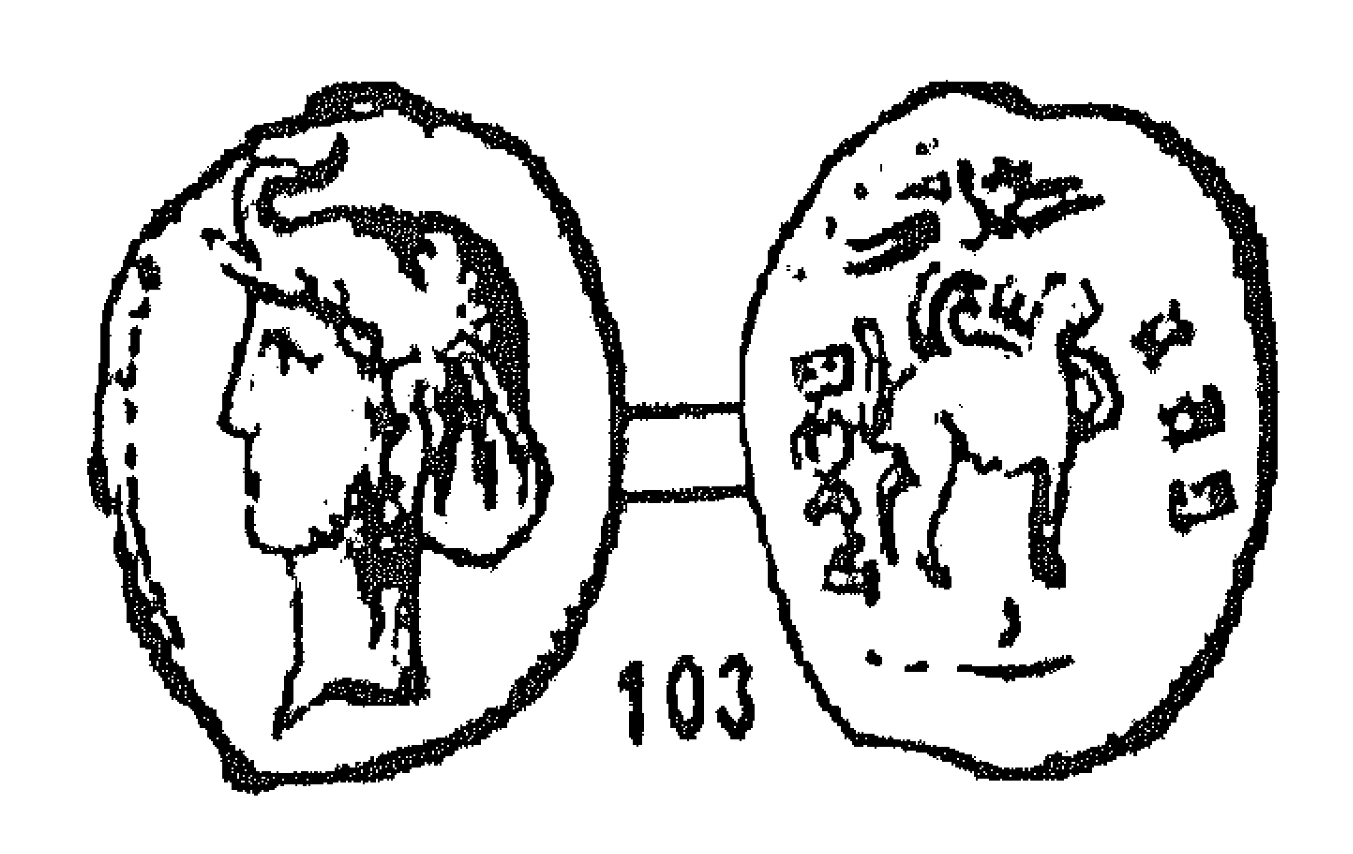
Tacfarinas, le résistant amazigh de l'antiquité (17-24 après J.-C.), dans *Mémorial Germain* Ayache, Rabat, 1994, p.9-21.

(45) أنظر مقالنا:

Le règne de Bogud (78- 38 avant J.-C.) ou L'extraordinaire effervescence économique du Maroc antique, dans *La Recherche Historique*, sous presse.



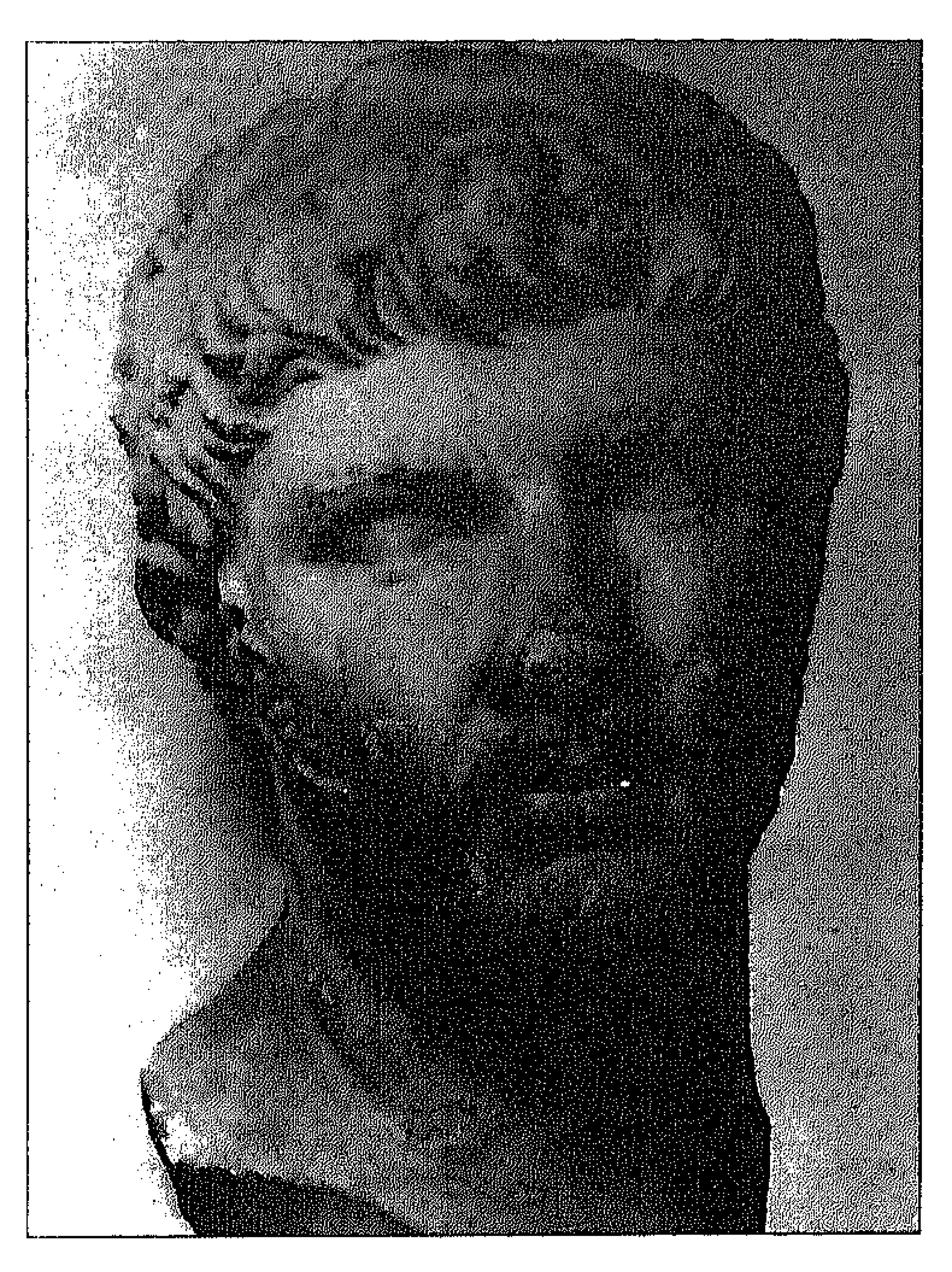
Monnaies d'argent émises par le roi Bogud.
Mazard, C*NNM*, p. 61



Monnaies d'argent représentant le *Dea Africa*, émise par le Roi Bogud
Mazard, C*NNM*, p. 61

وهذا بطليموس الذي استُنبط من صورة تمثاله والذي لا نعرف هل هو مطابق لصورته فعلا أنه غبي وكأن الصورة تكفي لمعرفة باطن الإنسان. فهو ملك لم يتردد يوما على قصر الإمبراطور لكونه لا يرضى بالركوع على عكس الحكام الآخرين. وهو أيضا ملك لم تعرف مملكته أي ثورة في عهده، وقامت القائمة بعد قتله مما يدل على حب مواطنيه له. أما جملة تاكيتوس والتي كتبها حول مجون الملك وسيطرة المعتقين على إدارة المملكة، فنظن أننا تحدثنا عنها في مقالنا[46] وبيننا بأن لها علاقة مع بداية حكم بطليموس وبالإرث السياسي الذي تركه له أبوه يوبا الثاني.

(46) H. Ghazi-Ben Maïssa, Encore et toujours sur la mort de Ptolémée, Le roi amazigh de Maurétanie, dans *Hespéris*, 1995, p. 21-37.



الملك بطليموس ابن الملك يوبا الثاني (32-40 بعد الميلاد)

◻ مجزوءة الحضارة البونية - الأفريقية:

أصبحت عبارة البونية الإفريقية تثير تساؤلا. ذلك أنه لم يكن يخطرعلى بال الكثير أن هناك علاقة عضوية بين الحضارة المسماة بونية وأرض أفريقيا التي تبلورت عليها. فهذه الحضارة هي في الواقع حضارة إفريقية. لأن القرطاجي ليس سوى نتيجة انصهار بيولوجي بل وذوبان لحفنة من الفينقيين مهاجرين هجرة اقتصادية[47] في أعداد هائلة من الأمازيغيين[48]. ذلك أن قوم هؤلاء الوافدين، الذي لم يكن يعد بالملايين وإنما بالآلاف، قد انتشر من رغب في الهجرة منه في جزر المتوسط مثل مالطا وكريت وصقلية وسردينيا وجزر البليار وشواطئ إسبانيا ورشّ بعض النقاط من شواطئ أفريقيا (أي تونس الحالية). والعائلات التي اختارت موقع قرطاجة لاستقرارها، قد امتزجت وانصهرت في العدد الهائل للعنصر الأمازيغي

(47) الفينيقيون مهاجرون هجرة اقتصادية وليسوا محتليين. هاجرأشخاص منهم بحثا عن الرزق. والصراعات التي عرفتها المدينة ومحيطها هي في الواقع صراعات بين بورجوازية حضرية تجارية ثرية حاكمة وبادية فلاحية فقيرة محكومة ومستغلة.

(48) ذلك شأن كل الأقوام التي وفدت على هذه الأرض المعطاء. فكون الجميع دخل في الجلباب والبرْنسْ وأكل الكسْكسْ دليل قاطع على ما قلناه. ولو كان عدد الوافدين أكبر لرأيت كل المغاربة يدخلون عباءة ورؤوسهم مغطاة بكوفية مثبتة بعقال.

حتى صارت المصادر تسمي أفرادها أفارقة وليبوويين[49]. وعلاقات المصاهرة التي كانت تربط هذه العائلات بالأمازيغيين والتي ذكرتها عدة مصادر تؤكد ذلك.

هذا بالنسبة لمنطقة أفريقيا، أي أرض تونس الحالية. أما في ما يتعلق بأرض المغرب فليس هناك دليل يؤكد الوجود الفينيقي أو القرطاجي بأرضه بالصيغة والكثافة التي يتصورها العديد من الباحثين. ومنبع الخطأ كون العديد من الباحثين يومنون إيمانا راسخا أن الليكسيتيين "Lixitai" الذين تحدث معهم حانون ومرافقوه[50] أثناء رحلته المحاذية للشواطئ المحيطية الإفريقية، هم سكان ليكسوس الواقعة شمال العرائش الحالية. بمعنى آخر أن رحلة حانون كان مقصدها المغرب بل والقسم الشمالي منه. وقد نتج عن هذا الفهم أن ظلت جميع الأبحاث الأركيولوجية المنجزة على أرض المغرب الحالي مقيدة بهذا التأويل. وصار كل من حفرمن الباحثين مربّعا وزاد من عمقه إلا وبدا له أن في قعره المظلم، والذي لا يملك بعد وسائل علمية لفك لغزه، سوقا قرطاجية أو فينيقية. وصار بعضهم لا يحفر ويدرس وبعدها يستنتج وإنما يستنتج قبل أن يدرس ويتأكد. فكونه مهيأ نفسيا وعقليا وثقافيا للاعتقاد أن الفينقيين أو القرطاجيين هم الكلّ على هذه الأرض، جعله دوما يُجْهِد الحفريات لتتطابق والتأويلات. فصار هدف التنقيب ليس هو البحث عن الحقيقة أو الواقع التاريخي بكل مفاجآته، وإنما البحث عن الفينقيين والقرطاجيين في المغرب. وتراه يفرح ويسعد لاستطاعته، رغم أنف المنهج العلمي، مطابقة (بين قوسين) نتائج حفرياته وتأويلات المصادر الأدبية. ذلك أن هذا سيضفي، في نظره، شيئا من المصداقية على عمله ويجعل منه السبّاق في العثور على الفينقيين والقرطاجيين. وهكذا، يقوم هذا النوع من المنقبين بإسناد نقطة أو عدة نقط حضارية جديدة لأجنبي وبالتالي بتجريد سكان الأرض الأصليين (وإذا كان مغربيا بتجريد نفسه من حيث لا يدري)[51] من السبق إلى

(49) أنظركتابات بوليبوس وأبيانوس وتيتوس ليفيوس وديودور الصقلي وسترابون وبروكوبيوس ألخ...

(50) أنظر النص الكامل للرحلة في :

J. Desanges, *Recherches sur l'activité des Méditerranéens aux confins de l'Afrique*, Rome, 1978, p.392-393.

(51) والغريب في الأمر أن بعض المغاربة يساهمون بفعالية في تجريد بلادهم من حضارات كبرى. ففي الوقت الذي يسمي الأوروبيون حضارة كبرى بالحضارة المورية Mauresque، أي المغربية، تجدهم، هم، يطلقون عليها اسم أندلسية فيغيبون بالمناسبة كل ما قام به المغاربة و الذين لولاهم لما تم فتح هذا البلد. ولولا النفزاويين أخوال عبد الرحمان الداخل والمرابطين والموحدين و المرينيين لما غنّى بها زرياب وأطرب. وللتذكير فالمشارقة عامة والشاميون خاصة والمنسوب لهم فضل وجود هذه الحضارة لم يقوموا يوما بقرعة سيف لحماية الأرض التي تبلورت فوقها.

الحضارة[52]. أما إن لم يعثر على أي شيء يوحي، وأقول يوحي وليس يؤكد، بوجود هذين القومين، تراه تنتابه الخيبة ويعدنا أن العثور على آثار هؤلاء قادم لا محالة في حفريات مقبلة... وهكذا نبقى نعيش على الأمل، ويعتقد القارئ أنه سيأتي اليوم لا محاله. وهكذا، ومع تكرارها تصبح الآمال والافتراضات حقائق موثوقا بها.

وبدل العمل بفكرة أن كل بوادر مظاهر الحضارة محلية حتى يثبت العكس كما تفعل جميع الشعوب[53] في كل الأقطار، نجد الباحثين بصفة عامة وباحثينا، مع الأسف، بصفة خاصة، يعملون بالعكس: فكل مظاهر الحضارة أجنبية حتى يثبت العكس، إلا الرديء منها، حينها يخرج ذلك المحلي الشبح لتحمّل مسؤولية خشونة صنعها. وكأننا أمام شعب عقيم ودون الشعوب. أهله صمّ، بكم، مقطوعو الأيدي. ولبيان هذا سوف نكتفي بثلاثة أمثلة للتدليل على ما نقوله. الأول هو ما تم التسرع في كتابته حول تلك الحضارة الرائعة المُويّلحية[54] حيث سميت إيبيرو. موروسية، أي أنها من أصل إيبيري قبل أن تنقل إلى الموريين، مغاربة العصر القديم. وقد أثبتت الدلائل في ما بعد أنها محلية أمازيغية محضة. والمثال الثاني هو ما تم التسابق إلى نشره حول خزف لقواس حيث تمت تسميته بالإيبيري - البوني وهو في الواقع خزف محلي مغربي لا أثر لأفران صنعه لا في إيبيريا ولا في قرطاجة. ومع ذلك تم الإصرار على الاحتفاظ بهذين الاسمين رغم عدم دقتهما بل ورغم الغلط والتغليط اللذان يحملانه في كنههما[55]. والمثال الثالث هو التقسيم الكرونولوجي الذي يعمل به هؤلاء الباحثون والذي يغيبون فيه تغييبا تاما العنصر المحلي.

وغاب عن ذهن هؤلاء في ما يتعلق بالفينقيين على الأقل أنه لإنشاء مؤسسات أو وكالات تجارية، وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة Comptoir، لا بد من توفر شرطين أساسيين: أولهما أن تكون المنطقة المختارة لهذا الإنشاء آهلة بالسكان المحليين.

---

(52) وليعلم القارئ الكريم أن كل المدن القديمة، وبدون استثناء، والموجودة على أرض المغرب الحالي والتي يطلق على العديد منها نعت الرومية، لم تكن يوما من تأسيس رومي. فوجودها بقرون قبل مجيء روما ثابت بالنصوص والحفريات.

(53) بل وهناك من الدول، ومن بينها فرنسا ومصر، ومن أجل غرس الإحساس بالفخر والثقة بالنفس في أبنائها، من يذهب إلى درجة كتمان، وفي أحسن الأحوال يمرّ مرور الكرام، على الأصل الأجنبي لشخصيات ساهموا في حضارة بلدانهم.

(54) جرت العادة على تسمية الحضارة باسم الموقع الذي تمّ العثور فيه على أثرها لأول مرة. والموقع هنا هو واد المْويلح بالجزائر.

(55) أصبح الشائع الآن هو "فخار لقواس" و ليس "الفخار الموري". ربما لكون كلمة "لقواس" لا توحي بشيء يذكّر مغربية الموقع ولا أمزغته. ذلك ما حصل بالنسبة للمرابطين والموحدين بحيث قد يخرج الفرد بعد دراسة إمبراطورياتهم دون أن يعي أنهم أمازيغيون.

ولا يمكن أبدا أن تكون أرضا خلاء، وإلا فمع من سيتم التبادل؟ وبالتالي يجب أن يضع الباحثون نصب أعينهم أنه كلما تم التفكير في موقع فينيقي أو قرطاجي، أينما كان، يجب أن يصحبه التفكير أن تجمعا سكنيا محليا لا فقط يرادفه، بل ويسبقه في القدم. أما ثانيهما فهو أن يعم السلام والأمان والتفاهم بين الطرفين. بمعنى آخر أن تسود العلاقات الطيبة بين البائع والمشتري أي بين المحلي والأجنبي. وهذا لا يمكنه أن يحصل إلا في إطار توازن، وليس تساو، ديموغرافي بين العنصرين الوافد والمحلي، تكون الأكثرية فيه، من حيث العدد، للمحليين بحيث لا يشعرون بغربة وهم على أرضهم. والقصة التي تحكي أن الفينقيين الأوائل لما حلوا بأفريقا Africa قاموا بكراء قطعة من الأرض توضح بشكل جلي وجود محليين منظمين مجتمعيا تمت معهم عملية تعاقدية لا يسمح بموجبها تملك الأرض من طرف الأجنبي.

وبخصوص نص رحلة حانون فالمتمعن فيه، و بدون أية فكرة مسبقة، يمكنه أن يطرح عدة تساؤلات منها(56) :

1) هل من الممكن أن تنال رحلة حانون ومرافقوه كل هذا الاهتمام والشهرة، وتؤثر على ذاكرة البشرية، وينقش النص الواصف لمراحلها من طرف القرطاجيين، ويعلق على جدران معبد الإلاه (بعل) كرونوس بمدينتهم(57)، ويهتم به اليونانيون ويترجموه إلى لغتهم، لو كانت غاية صاحب الرحلة، التي انطلقت من كَاديرا أو قادس الإسبانية كما جاء عند بلينيوس الشيخ(58)، هي الوصول إلى المغرب فعلا، بل القسم الشمالي منه؟ وهل يمكن اعتبار الإبحار عبر بضعة أميال، من كَاديرا إلي ليكسوس الشمال، بل إلى شمالها (هناك مواقع تم تأسيسها قبل الوصول إلى موطن اللكسيتيين)، رحلة "Périple" في نظر الفينقيين أوالقرطاجيين القدماء، الذين نعرف أنهم جالوا المتوسط طولا وعرضا وقطعوا مئات بل آلاف الأميال البحرية ولم

(56) أنظر الأسئلة العديدة التي طرحناها في مقالنا "آثار الفينقيين والقرطاجيين بمملكة المغرب القديم بين البحث عن الواقع والجري وراء السراب"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط**، العدد 26، 2006، ص.ص. 69-90.

(57) أنظر نص الرحلة، الفقرة الأولى.

(58) وحتى لوافترضنا أنها انطلقت من قرطاجة، فما هو الفرق بينها وبين رحلة لقادس ولماذا رحلات قادس لم تنل هذه الشهرة؟

يقيموا لذلك قائمة؟ وحتى لو افترضنا أنها انطلقت من قرطاجة، هل ليكسوس الشمال أبعد عن قرطاجة من بعد كَاديرا عليها؟

2) جاء في نص الرحلة أن حانون قد أبحر بستين سفينة[59] على متنها معدات وحوالي 30.000[60] من النساء والرجال[61] لخلق مدن سكانها ليبو- فينقيون. السؤال هنا هو : هل كان المغرب، في بداية القرن الخامس قبل الميلاد، وهو التاريخ الذي تمّ اقتراحه من طرف جل الباحثين، أرضا خلاء أو مكونا من شعب غير آبه أو معتوه بل و دون مستوى الحيوان[62] يتم إنزال 30.000 نفر على شواطئه ويرى أراضيه تُقتطع ومجالات رزقه يُسيطر عليها من طرف الأجانب ولا يحرك ساكنا؟ لقد أفادتنا المصادر القديمة أن المقاومة الأمازيغية عامة ومقاومة سكان مملكة المغرب القديم خاصة ضد الروميين كانت من أشرس المقاومات وأعنفها[63]، بحيث كانت مملكة المغرب آخر أرض احتلتها روما وأول أرض اضطرت لمغادرتها خائبة مهزومة. وإذا ظهر للباحثين أن سكان المغرب الأقدمين، مثلهم مثل جميع الشعوب، يدافعون عن أرضهم ويهاجمون من يقتصّ من مجال رزقهم، فلابد أن تحدث اصطدامات بينهم وبين الفينقيين، بل البونيين المحتمل إنزالهم بهذه الأعداد. وفي هذه الحالة لابد لقرطاجة، وعلى غرار ما كانت تقوم به في جهات أخرى، من أن تتدخل لحماية "جاليتها". لكن الغريب في الأمر هو أن قرطاجة لم يسجل لها التاريخ ولو مرة واحدة تدخلا عسكريا على أرض المغرب. فلا يمكن أن يستنتج من هذا سوى أن هذا الوجود لم يحصل إلا في مخيلة بعض الباحثين .

3) إذا كان المغرب القديم، كما يعتقدون، مجالا للتجارة القرطاجية، فلماذا لم يتم العثور على نقود قرطاجية بالكثافة التي يصورون بها الوجود القرطاجي في هذا البلد؟ ولماذا لم نعثر على نقائش فينيقية ولا بونية[64] على أرض المغرب بينما تم

(59) أنظر نص الرحلة ، الفقرة الأولى.

(60) هذا عدد مبالغ فيه في نظرنا . و قد يكون الصحيح هو 3.000 نفر أو أقل، بمعدل خمسين شخصا في كل سفينة محملة بالمؤونة ويقودها خمسون جذافا.

(61) أنظر نص الرحلة، الفقرة الأولى.

(62) المعروف عن الحيوان هو أنه يحرس محيطه و يدافع عنه.

(63) Cf. à titre d'exemple: M. Rachet, *Rome et les berbères, un problème militaire d'Aguste à Dioclétien*, éd. Latomus, Bruxelles, 1970 et M. Benabou, *La résistance africaine à la romanisation*, éd. Maspéro, Paris, 1976.

(64) هذه الكتابة المسماة بونية كتابة يجب تسميتها، في الحقيقة، إفريقية، شأنها شأن الأبجدية المسماة الإغريقية. فكلاهما مشتق من الفينقية وكلاهما تطور على أرض غير الأرض الفينقية. فلماذا تمّ إبراز الموروث الإغريقي في حين تمّ طمس الإفريقي؟

العثور على نقائش ما يسمى نيوبونية[65] وليبووية[66]؟ ولماذا لم نعثر على نقائش ومعابد وتماثيل للالاهة الرسمية تانيت والتي تعد نقائشها بالآلاف في قرطاجة ومحيطها؟ وهل تخلص منها هؤلاء القرطاجيون قبل مجيئهم؟ وإذا كان القرطاجيون هم الذين تحكموا في اقتصاد مملكة المغرب القديم ويسيرونه وسيروا معه البلاد والعباد، فلماذا لم يؤثروا في نظامه المالي؟ ولماذا نجد شكّل النقود والرموز المنقوشة عليها وإيكونوغرافياتها ووزنها وسمكها ونسبة خلط المعادن بها ومعيرتها كلها مختلفة كل الاختلاف عن النقود القرطاجية؟

4) وإذا كان هؤلاء الفينقيون والقرطاجيون موجودين بالكثافة والقوة كما يدعي ذلك بعض الباحثين، فلماذا لم تكن طريقة الدفن الفينقي والقرطاجي منتشرة في كل ربوع مغرب ذلك الوقت؟ هناك حفنة قبور حول طنجة يقول بعضهم بأن أصحابها دفنوا على الطريقة الفينقية أو القرطاجية ومن هنا استنتجوا وبكل بساطة أننا أمام فينقين أو قرطاجيين أقحاح. لهؤلاء نقول، إن كانت هذه الطريقة في الدفن فينقية أو قرطاجية فعلا، فهل هذا دليل على فينيقية أو قرطاجية المدفون؟ هل جميع المغاربة اليوم الذين يدفنون على الطريقة الإسلامية عرب، حتى يكون من دفن على الطريقة الفينقية فينقيا وعلى الطريقة القرطاجية قرطاجيا؟ ألا يمكن أن نكون أمام أمازيغيين أوّصوا وهمّ أحياء أو اختار أهلهم دفنهم على الطريقة الفينقية أو القرطاجية؟ وهل كل من دفن مع قرط أو خزف يقال من صنع فينقي أو قرطاجي أو مشابه لذلك هو (أو هي) بالضرورة فينقي أو قرطاجي؟ ألا يمكن أن نكون أمام أمازيغيين حملت نساؤهم حليا أجنبيا وشربت أسرهم في أواني مستوردة ؟ وكذلك الشأن فيما يتعلق بالأسماء، هل جميع من يحمل من المغاربة اليوم اسم محمد أو إبراهيم أو عبد الله أو فاطمة أو أمينة أو خديجة عرب أصلاء ليكون بوستار Bostar وهو الاسم الوحيد، حسب علمنا، قرطاجيا؟[67] ألم يسمّ الملوك الأمازيغيون الأقحاح أبناءهم بأسماء

---

(65) يجب أن ينطبق على هذه الكتابة المسماة نيوبونية أو "بونية ـ جديدة" و المشتقة من الكتابة الإفريقية المسماة بونية ما انطبق على الكتابة الرومية. فهذه الأخيرة ما هي في الواقع إلا كتابة نيو. إغريقية أو إغريقية جديدة عمّدها (baptiser) الأوروبون لاتينية. في حين نجدهم يؤكدون على بوّنة كتابة مشتقة من كتابة إفريقية ظهرت، من بين ما ظهرت عليه، على أرض مملكة المغرب القديم وبعد انهيار قرطاجة.

(66) هذه الكتابة الأمازيغية بامتياز، كتابة يجب تسميتها، في الواقع، تيفيناغ و ذلك للتشابه التام الحاصل بين هندسة حروفها وحروف تيفيناغ الحالية.

(67) Cf. *ILM* 116; IAM2, 448

قرطاجية منها "مستنبعل" و"أدر بعل"؟. إذا كان عدد الفينقيين والقرطاجيين الموجودين بشمال إفريقيا عامة وبمملكة المغرب القديم خاصة هائلا، وهذا هو الانطباع الذي يخرج به قارئ هذا النوع من الأبحاث، فلماذا لم يتركوا أثرا للغتهم في لغة الأصلاء؟ وإذا كانوا مسيطرين على الحياة السياسية المحلية، فلماذا لم نجد في كل المدن، وليس في وليلي وحدها، حسب علمنا، أثرا للسوفية؛ ولو أن لا شيء يؤكد أن هذه المؤسسة، التي تبناها القرطاجيون، فينيقية الأصل. ولما لا تكون المؤسسة عبرية[68] أو أمازيغية اقتبسها القرطاجيون الأفارقة. ألا تذكّر الكلمة بأسفو (المشعل) وجمعها إسوفا وإسوفاتن ودلالتها النور؟ ألم يحمل الأمازيغي ابن تومرت هذا المصطلح كاسم؟ وحتى إذا افترضنا أنها قرطاجية من أصل فينقي فهذا لا يعني حتميا أننا أمام سيطرة القرطاجيين على الحياة المحلية؛ لأننا: أولا لم نعثر بعد على أثر وجود هذه المؤسسة بالمدن الأخرى لمملكة المغرب القديم، وثانيا حتى لو عثرنا عليه ألا يمكن أن تكون المؤسسة مستوردة دون استيراد الفينقيين والقرطاجيين؟ ألم يستورد المغرب مؤسسة الباشا دون وجود للأتراك به[59].

5) إذا كان هؤلاء الفينقيون والقرطاجيون هم من سيطر على تجارة المغرب القديم، فلماذا لم نجد ذلك النوع من الخزف اليوناني الذي يقال عنه بأن قرطاجة كانت تتاجر فيه وتوزعه على مناطق المتوسط الغربي بمملكة المغرب القديم بنفس الكمية التي يوجد بها في قرطاجة والمناطق التي كانت تتردد عليها فعلا؟ ثم لماذا لم يتمّ العثور على الخزف الفينقي ولا القرطاجي الحقيقيين على أرض مملكة المغرب القديم؛ وكان ما عثر عليه خزف محلي يقال بأنه يشبه وبدرجة أحسن الخزف القرطاجي[70]؟ وهذا لوكي (Luquet) يقارن بين الخزفين معتمدا على خزف باناصا الذي يرجع تاريخ صنعه إلى القرنين السادس و الخامس قبل الميلاد فيقول:

---

(68) تمّ العثور على نقائش عبرية بوليلي و أسماء بعض الزعماء الأوّربيين المستقبلين للمولى إدريس توحي بيهودية دينهم قبل إعلان إسلامهم. ولا يستبعد أن يكونوا هم "باوار" Bauares المصادر اللاتنية والذين شغلوا المنطقة الداخلية الممتدة من الوادي الكبير حتى السفح الشرقي للأطلس المتوسط والذين حالوا دون خلق طريق برية بين الموريطانيتين من طرف روما. وقد يظهر أن التواصل بين الإقليمين كان يتم عبر البحر أنظر: Tacite, *Histoire*, II, 59

(69) كما استورد الطربوش الأحمر المعروف عند الفرنسيين بـ "Le Fez" وكلمات منها القهواجي والصابونجي المعروفتين في الأوساط الحضرية فقط.

(70) وهذا يبين عبقرية الصانع المغربي منذ ذلك الوقت. ومما يؤكد ذلك ما ورد في المصادر اللاتنية واليونانية حول صناعة طاوولات خشب العرعار وصباغة الأرجوان من طرف المغاربة القدماء.

"Les poteries récoltées à Banasa sont de prime abord mieux travaillées [que celles de Carthage]. Le dégraissant employé est souvent du quartz finement broyé, intimement lié à la pâte, dont le degré de finesse est remarquable pour certaines pièces. La cuisson a été bien menée, la cassure est nette, sans fissure, entièrement rose ou quelquefois rubéfiée."[71]

ولنفرض أننا أمام خزف يشبه فعلا خزف قرطاجة، فهل ظل القرطاجيون فينيقيين أقحاحا وصناعتهم فينقية وهم على أرض الأمازيغ لمدة قرون؟ أم أننا أصبحنا أمام مجتمع مختلط[72]؟ بل وأكثر من ذلك، فجفاف المنبع البشري الفينقي نحو قرطاجة من جهة وإحاطة سكانها الوافدين بالأضعاف المضاعفة من الأمازيغ، بموجب الحتمية الجغرافية، من جهة، يجعلنا نفكر، وبكل بداهة بل وبعلمية، بأن الجينات الفينقية للقرطاجي تسير نحو التلاشي[73] في حين تسير الأمازيغية منها نحو التقوية كلما دخل في تكوين شجرته رجل أو امرأة[74] من أرض تامزْغا التي يعيش بها ويتمتع بخيراتها. فقرطاجة مدينة إفريقية بكل ما في الكلمة من معنى. وبالتالي فحضارة هذه المدينة حضارة إفريقية في واقع الأمر. وقول عكس ذلك مثل قول إن حضارة فاس وسلا والرباط وتطوان، أي المدن التي احتضنت الجالية الأندلسية، حضارة غير مغربية. وينتج عن كل هذا أن كل مظهر من مظاهر التشابه بين حضارة مدينة قرطاجة وحضارة الجهات الإفريقية الأخرى هو بالطبع، إن لم يوجد مثيل له على أرض أجنبية، لا يمكنه أن يكون إلا إفريقيا. وعليه، فلا غرابة إن وجدنا تشابها بين الصناعة القرطاجية والكيرتية[75] والباناسية والتيواسية[76]

(71) A. Luquet, la céramique préromaine de Banasa, dans *BAM*, V, 1964, p. 123.

(72) Cf. A. Ferjaoui, *Recherche sur les relations entre l'orient phénicien et Carthage, Carthage*, 1992, *passim*.

(73) بهذه الكلمة نعني L'évanescence الفرنسية.

(74) جرت العادة في جميع المجتمعات الأبيسية (Patriarcale) أن لا يعتدّ بجينات الأم وعليه يتم التصرف في قضية الإرث الهوياتي وكأن رحم المرأة قدّر وجد فقط لتوفير الظروف لنمو النطفة وأن المرأة ليست إلا حاملا (Porteuse) لابن أبيه؛ و هذا بطبيعة الحال مخالف للقواعد العلمية بل ولقواعد الطبيعة نفسها.

(75) كيرتي و كيرتا هو النطق السليم للنّسخيْن اليوناني واللاتيني للكلمة و ليس "سيرتا" كما هو شائع والمأخوذ في الواقع عن النطق الفرنسي المحرف للاتينية. أما الاسم الحقيقي لهذه المدينة الأمازيغية الكبرى فهو مكون من الصوامت التالية: KRTN.

(76) يظهر أن الروميين كانوا يعوضون الواو الأمازيغي بحرف "P" فميكوْسا كتبو اسمه Mikipsa وليوْتيس (مدينة لواتة) كتبوها Leptis واسم مؤلف أول رواية توفرت فيها شروط الرواية في تاريخ البشرية "أوُولّي" (من ك. أيت. أولي = G. Aït uli كما يقول الروائي نفسه) كتبوها Apule(ius) و بالتالي فاسم Tipasa قد يكون في الأصل تيواسا أي أنه مركب من "تين أو تي" أي التي تنتسب إلى و "أسا" أي الحوض والكل يعني مدينة الحوض. أما للذين يرون في حرف "P" نسخا لحرف فاء أمازيغية و بالتالي Apuleus هو نسخ لأفولاي و Tipasa هي في الأصل تفْزا. فنقول إن هذا مُجانب للصواب، وذلك لسبب بسيط هو أن اللاتنية تملك حرف الفاء وبالتالي فهي ليست في حاجة إلى البحث عن حرف لتعويض الفاء الأمازيغي. وللتأكد أنظر اللائحة الطويلة للكلمات البادئة بالفاء (ص، 645-699) ، ناهيك عن التي تضم هذا الحرف بداخلها أو تنتهي به، في المعجم اللاتيني. الفرنسي لصاحبه F. Gaffiot.

والوليلية وغيرها. ولا غرابة إن وجدنا كلمة عند القرطاجيين والأمازيغ في نفس الوقت. فالقرطاجيون، حسب المتخصصين، تكلموا لغة مزيجا من الفينقية والأمازيغية[77] أي نوعا من الكريول (créole)[78] ولا غرابة، بل ولا مفاجأة في هذا. فلغة القوم مرآة لتركيبة مجتمعه. وعليه فعندما تقول المصادر اليونانية أو اللاتينية[79] إن تلك كلمة بونية، مثال ذلك كلمة أكادير[80]، فلا يحق أن تنسب أوتوماتيكيا للغة الفينقية بل يجب أن يوضع في الحسبان أن جل هؤلاء المؤلفين، إن لم نقل كلهم، جاهلون للغات الفينقية والبونية والأمازيغية وبالتالي لا يمكنهم التمييز بين مفردات كل منها. وما يجب أن يحضر بالبال هو أن البونية ليست فينقية "نقية" وأن الكلمة بها قد تكون فينقية كما قد تكون أمازيغية .وبالتالي يجب الوقوف عند أي مفردة قيل إنها بونية لتعميق الدراسة والتحرّي في شأنها. ولكي نعتبر المفردة فينقية يجب، في نظرنا، أن تكون، أولا و قبل كل شيء، شائعة الاستعمال في فينقيا وأن تنتشر في كل أماكن المتوسط[81] التي تردد عليها الفينقيون. أما إذا وجدت بقرطاجة وببلاد الأمازيغ، فيتوجب حينها التفكير جديا في أمازيغيتها[82].

6) إن التأويل الذي يموّقع من خلاله الباحثون الليكسيتيين Lixitai بمنطقة ليكسوس، شمال المغرب الحالي، هو في الواقع تأويل لا يصمد للحتمية الجغرافية. ففي الفقرة السابعة من نص الرحلة ورد أن هناك سلاسل جبلية كبرى تقع جنوب الليكسيتيين وتفصل بينهم وبين الإثيوبيين ومنها ينبع "حسب الليكسيتيين" نهر

---

(77) Cf. A. Ferjaoui, *Recherche sur les relations entre l'orient phénicien et Carthage*, Carthage, 1992, p. 185-325.

(78) وهذا واقع اللغة الوطنية المغربية المسماة "الدارجة" والتي هي عبارة عن مزيج رائع وهادئ بين اللغتين الأمازيغية والعربية والتي ينطبق عليها مصطلح الأمازيغربية L'amazigharabe.

(80) Cf. Pline, *Histoire naturelle*, IV, 120; Festus Avienus, *Ora maritima*, v. 268-269. et Id., *Orbis terrae*, v. 615-616.

(79) تجدر الإشارة إلى أن نصوص هذيْن المؤلفيْن الواردة اسماؤهما أعلاه يذكران لفظ "أكَادير" لا على أساس انه مصطلح فينيقي وإنما على أساس أنه كلمة بونية والفرق في نظرنا واضح. والمعاصرون هم من قفز على كلمة بونية المكتوبة في النصوص وأحلّ محلها، في تحليلاتهم، كلمة الفينقية، أنظر في هذا الشأن وعلى سبيل المثال :

St Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, T.I, p. 319 et note 2.

(80) يمكن تفسير وجود "كَادير" الإسبانية بحكم قرب موقعها من بلاد الأمازيغ و الذين نعرف أنهم كانوا يترددون على شبه الجزيرة هذه منذ عصور ما قبل التاريخ.

(81) هناك من ذهب به الأمر، بُغية جعل سالاً من تأسيس فينيقي قرطاجي، إلى اعتبار إسلّي لفظا فينيقيا رغم كونه لم يظهر إلا في نصوص تتعلق بأرض المغرب. فإذا كانت الكلمة كذلك فلماذا لم يتم نشرها في كل المناطق التي داستها أرجل الفينقيين في العصر القديم؟ ولماذا لا نجد أثرا لها اليوم في كريت وقبرص ومالطا وصقلية وساردينيا والبليار وإسبانيا، ولبنان، موطن الفينقيين، في حين تغمر السهول والجبال والهضاب التي يقطنها الأمازيغيون والتي لم تر يوما أثر وجود الفينقيين بها. وهل أصحاب هذا الطرح يعنون به أن الأمازيغ، الذين ليس لديهم مفردة أخرى غير إسلّي المقابلة لكلمة caillou الفرنسية و"الحجرة" العربية، لم تكن لديهم مفردة لنعت الحجر حتى جاء الفينقيون؛ مع العلم أن لفظ "أزرو" يعني الصخرة البارزة (le rocher) و"إمسلّي" الصخرة المدفونة؟

ليكسوس. والسؤال هو: أين يمكن أن يموّضع أصحاب الأطروحة أعلاه هذه الجبال ونحن في القرن الخامس قبل الميلاد فقط ولسنا بصدد الحديث عن زمن جيولوجي غابر؟ أيموّقعونها بمنطقة الغرب، أم بالشاوية أم بهضبة الفوسفاط أم بالحوز؟ وإذا كانت منطقة ليكسوس الواقعة في الشمال هي المعنية في الفقرتين السادسة والسابعة من نص الرحلة، فأين يمكن موّضعة "السهل الكبير"[83]، "ورأس سوليس (Soleis) الذي تكسوه الأشجار"[84]، "والبحيرة غير البعيدة عن البحر المملوءة بقصب كثيف وعال والتي ترعى فيها أعداد كبيرة من الفيلة وحيوانات متوحشة أخرى "[85]؟ وأين يمكن موقعة المراكز الست وهي:

(Thumiaterion, Caricon Teichos, Gutte, Acra, Melitta et Arambys)

والتي قام حانون بإنشائها قبل وصوله إلى منطقة الليكسيتيين؟ ولماذا لم يتم العثور، إلى حد الساعة، على إحداها ؟ وما الهدف من تأسيس ست مستوطنات بين طنجة وليكسوس لبلد كقرطاجة كان أهلها يبحثون عن الذهب والفضة والعطور والعبيد وبيض وريش النعام؟ فالمساحلة (Le cabotage) لا تقتضي بالضرورة إنشاء المدن. ويمكن لأي أحد أن يساحل بثغور آخرين شريطة أن يكون مسالما وأن يوافق المحليون على ذلك. وإذا لم يوافقوا فحتى التأسيس لن يدوم و إلا وجب وضع جيش حول كل مرفأ تمّ إنشاؤه.

7) ورد أيضا في الفقرة الثامنة من نص الرحلة أن حانون اصطحب معه ليكسيتيين للترجمة بينه وبين الإثيوبيين ومن هذا الكلام استنتج بعض الباحثين أن اللكسيتين يتكلمون البونية وأن لغة التواصل بين الليكسيتيين وحانون وأصحابه كانت البونية و البونية فقط فاستنتجوا من هذا الاستنتاج أننا أمام سكان عرفوا التأثير الفينقي أو القرطاجي من قبل مكنهم من إتقان هذه اللغة قبل مجيء حانون. وعدم ثبوت وصول الفينقيين أو القرطاجيين لمناطق في الجنوب قبل رحلة حانون، جعل هؤلاء الباحثين لا يرون في ليكسيتيي الرحلة إلا سكان ليكسوس الواقعة في الشمال

(83) أنظر نص الرحلة، الفقرة الثانية.

(84) أنظر نص الرحلة، الفقرة الثالثة.

(85) الفقرة الرابعة من نفس النص. و تجدر الإشارة هنا إلى أن اسم "إيفنى" يعني الضاية واسم "كلميم" (أكلميم) مثلها مثل "أكلمام" التي تعني البحيرة.

للمغرب الحالي. وغاب عن ذهن هؤلاء الباحثين أن يكون حانون هو الذي قد تكلم الأمازيغية، وهو الشخص الذي ازداد وترعرع على أرض تامزغا كما ازداد آباؤه وأجداده وأجداد أجداده منذ ما يزيد عن تسعة أجيال على الأقل. أجداد جاءوا بعدد قليل وامتزجوا، بل وذابوا بيولوجيا بفضل المصاهرة في العدد الهائل للأمازيغيين، كما تؤكد كل النصوص القديمة. ولنفرض أن حانون لم يكن يتقن الامازيغية، ألا يمكن لهذا الرجل، وهو الذي استعد استعدادا باهظا لهذه الرحلة، حيث "أبحر، يقول النص، بستين سفينة، ذات خمسين جذافا، مصطحبا حوالي 30.000 رجلا وامرأة وآخذا معه المؤونة وكل ما يمكن أن يحتاج إليه"، ألا يمكنه إذن أن يفكر في مرافقة من سيتكلم هذه اللغة وهو المقبل على محاذاة الشواطئ الأطلسية لتامزغا، وبالتالي يكون الكلام بالأمازيغية، وحينها يقوم اللكسيتيون بالترجمة لا من الإثيوبية إلى البونية وإنما من الإثيوبية إلى الامازيغية وهذا يحررنا، فعلا، من الالتزام بموقعة ليكسيتيي نص الرحلة بمنطقة قريبة من التأثير الفينقي أو القرطاجي.

8) نعلم أن المغرب كان مملكة يحكمها ملوك بكل ما في الكلمة من معنى(86). وكل الدلائل تشير إلى أن هذا البلد الكبير و"شعبه العظيم والغني" (كذا) كما شهد بذلك سترابون(87)، قد شكل، ومنذ أقدم العصور، دولة عريقة ذات كيان، شاسعة الأطراف اختارت لنفسها نظاما ملكيا وراثيا قويا وصل إلى درجة تقديس الملك. والسؤال الذي نطرحه هنا هو: كيف يمكن لملك أن يسمح لأجانب باقتطاع أراضي من مملكته ثم يصولون ويجولون بها حسب ما يتبين من الأبحاث المنشورة حتى الساعة؟ ألم يكن ممكنا لهؤلاء الملوك أن يتخذوا العبرة مما حصل لإخوانهم وأبناء جلدتهم بشرق إفريقيا الصغرى؟ ألم يمكن لهم أن يحذروا من هذا القوم الذي نزل ضيفا وبعدها صار سيدا متسلّطا؟ ألم يحوّل هؤلاء التجار الوافدون، وبحد السيف، مجال وجودهم

(86) من الملاحظ أن الهستوغرافيا الفرنسية، ولخدمة أغراض توسعية على حساب المغرب، قد اكتفت بالإشارة إلى وجود مملكة مغربية دون التركيز عليها كنظام سياسي وكمجال جغرافي محاولة التصغير من قيمتها وحجمها .وفي الوقت نفسه، عملت على إبراز أهمية المملكة النوميدية رافعة من شأن ماسينسا المتعامل مع روما وجاعلة منه أكبر ملوك المنطقة على الإطلاق .ولقد زاد في ترويج هذه الأطروحة، وأطروحات مماثلة، بعض المثقفين المغاربيين غير المطلعين على المصادر والمنبهرين بنتائج دراسات الغربيين بصفة عامة والفرنسيين بصفة خاصة .ولما جاءت الكتابات العربية، ولأغراض أخرى، روجت، بكل ما في وسعها، الأطروحة القائلة بأن المغرب، كدولة، لم يظهر إلا في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الملاديين وأن بلاد المغرب لم تشهد قبل ذلك إلا نظام القبائل والعشائر وجعل مروجو هذه الأطروحة من تاريخ بلادهم تاريخا مقعدا (Cul-de-jatte). وما هذا إلا جهل بتاريخ بلادنا المجيد وبنظامه الملكي العريق.

(87) Strabon, XVII, 3, 2.

من قطعة أرضية مكّرية متواضعة المساحة (بورسا) Bursa إلى ملْكية شاسعة الأطراف مغتصبين أراضي المحليين؟ ألا تترجم ريبة[88] الملك المغربي أبوقس[89] الأول، ونحن في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد، تجاه الرحالة الأجانب، تخوفا موروثا منذ القدم؟ وكيف يمكن تفسير موقف الملك باكا[90] قبله بقرن وهو يساند مسينيسا عدو قرطاجة لو كان البلد يعج بالقرطاجيين، وكانت الحياة السياسية والاقتصادية تحت سيطرتهم كما يوحي لنا بذلك الباحثون من خلال تعاليقهم؟ من المستبعد جدا أن لا تصل أخبار تلك الحروب المتتالية التي كانت تشنها قرطاجة ضد جيرانها الأمازيغ إلى آذان الملوك والمسؤولين عن المملكة وبالتالي يصعب تصورهم يكررون، في محيطهم الجغرافي المباشر وقرب عواصمهم ومراكز حكمهم، تجربة تفتك بهم.

ولهذا إذن، ونظرا لكل الدلائل التي قدمناها واعتبارا لكل التساؤلات التي أثرناها في هذا المقال، يبدو لنا أن التنقيب عن آثار الوجود الفينقي ـ القرطاجي، إن كان هناك وجود[91] لهم فعلا، يجب أن يتمّ جنوب مملكة المغرب القديم وليس شمالها؛ لأن البحث عنه في شمالها قد لا يزيد، في نظرنا، عن الجري وراء سراب.

□ مجزوءة الاحتلال الأجنبي :

عبارة "الاحتلال الأجنبي" كعنوان لمجزوءة عبارة غير مريحة. ولو جاء هذا العنوان على شكل "العلاقات الخارجية لشمال إفريقيا القديم" أو "شمال إفريقيا والعالم الخارجي" أو على الأقل "الاحتلال والمقاومة بشمال إفريقيا القديم" لكان أفيد. وذلك حتى لا يشعر المغربي والشمال إفريقي أنه المفعول به دائما لا سيما وأن الوثائق تؤكد أن المحتل لم يهدأ له بال أبدا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يحق أن يوضع الفينقيون في خانة المحتلين. فهم شعب مهاجر وهجرته اقتصادية

(88) Strabon, II, 3, 3.

(89) الحروف المنقوشة على نقود الملك هي الصوامت "ب"، "ق"، "س"، و إذا احتفظنا بالضمة الواقعة دوما بعد الباء في جميع حالات نسخه في اليونانية أو اللاتينية فإن هذا يعطينا" بوقس. "وإذا أضفنا علامة المذكر في الأمازيغية "أ"، فإن الاسم يصبح "أبوقس."

(90) هناك من يشك في واقع الرحلة نفسها، أنظر :

R. Mauny, Le périple d'Hannon, un faux célèbre concernant les navigations antiques, dans *Archeologia*, n° 37,1970, p. 76-80; G. Germain, Qu'est ce que le périple d'Hannon, document, amplification littéraire ou faux intégral, dans *Hespéris*, XLIV, 1957, p. 205-248.

(91) Cf Tite Live, XXIX, 30, 1-4

وليست سياسية ولا عسكرية. أما الصراعات التي كانت تقوم بين قرطاجة وباقي سكان باديتها الإفريقية فهي لا تزيد عن كونها طبقية أي صراعات بين فئة بورجوازية من المولدين الأمازيغ-فينيقيين الحاكمة المستغلة وفئة الفلاحين الأفارقة الفقراء المستغلين. فالصراع كان إفريقيا-إفريقيا ولم نسمع قط أن حملة جاءت من صيدا أو صور للتوسع على أرض أفريقا بل وأكثر من ذلك فالصراع لم يتضح إلا بعد القرن الخامس لما أدارت قرطاجة ظهرها للشرق.

أما الاحتلال الرومي فقد تم تضخيمه من حيث البقعة التي شغلها ومن حيث وجود عناصر من سكانه على أرض شمال إفريقيا عامة ومملكة المغرب القديم خاصة[92]. فلم تقم روما يوما بمنع العادات ولا الديانات المحلية. ولم تجبرأحدا على الترومن. وكانت سياستها تتصف بعدم التدخل في القوانين وبالتالي في الشؤون المحلية للمدن والقبائل. وما كان يهم روما هو فرض الضرائب على أهل البلد وحماية ضيعات المعمرين المتوسعة على حساب أراضي المحليين.

وهذا هو السبب الحقيقي الذي كان يؤدي إلى محاربة وجودها من طرف المهدَّدين في أرزاقهم. وبالتالي فهناك من قاوم الاستغلال ولم يهتم بالرومنة قط. وهناك من رغب في الاندماج فترومن حتى أن شخصيات أمازيغية وصلت إلى قمة الهرم منها سبتيميوس سويروس وباسيانس وكيتا وماكرينوس أمقران وليكيو كييتوس وبعض علماء ورجال الدين. ومن خلال هؤلاء يمكن أن نقول إن الأمازيغ قد ساهموا في بناء هذه الإمبراطورية بمشاركتهم في الغزوات والحفاظ عليها بتوليهم مناصب وصلت إلى درجة منصب الإمبراطور وفي حضارتها بتبني لغتها ودياناتها سواء الوثنية أو المسيحية.

□ **مجزوءة المواقع :**

فباستثناء بعض مدن أفريقا يبقى دور الفينيقين وحتى القرطاجيين في خلق المدن بما في الكلمة من معنى مشكوكا فيه. فالفينيقيون والقرطاجيون كانوا ينشؤون وكالات تجارية، هذا هو المعنى الحقيقي لكلمة Comptoir. ولإنشاء مؤسسات من هذا النوع، لا بد من توفّر شرطين أساسيين: أولهما أن تكون المنطقة المختارة لهذا

---

(92) مملكة المغرب آخر من تمّ احتلاله و أول من استقل من قبضة روما بالمقارنة مع جميع الأقاليم التي سقطت تحت سيطرتها.

الإنشاء آهلة بالسكان المحليين ولا يمكن أبدا أن تكون أرضا خلاء، وإلا فمع من سيتم التبادل؟ والمراكز التي كان ينوى حانون خلقها دالة على ذلك. فهي كما جاء في النص ليبو-فينيقية. وبالتالي يجب أن يضع الباحثون نصب أعينهم أنه كلما تم التفكير في موقع فينيقي أو قرطاجي، أينما كان، يجب أن يصحبه التفكير أن تجمعا سكانيا محليا لا فقط يرادفه، بل ويسبقه في القدم. أما ثانيهما فهو أن يعم السلام والأمان والتفاهم بين الطرفين. بمعنى آخر أن تسود العلاقات الطيبة بين البائع والمشتري أي بين المحلي والأجنبي. وهذا لا يمكنه أن يحصل إلا في إطار توازن، وليس في إطار تساوي، ديموغرافي بين العنصرين الوافد والمحلي، تكون الأكثرية فيه، من حيث العدد، للمحليين بحيث لا يشعرون بغربة وهم على أرضهم. والقصة التي تحكي أن الفينقيين الأوائل لما حلوا بأفريقا Africa قاموا بكراء قطعة من الأرض توضح بشكل جلي وجود محليين منظمين مجتمعيا تمت معهم عملية تعاقدية لا يسمح بموجبها تملك الأرض من طرف الأجنبي. أما القصة التي ساقها هيرودوت والمعروفة عند المؤرخين بالتجارة الخرساء والتي تقول: "وحسب القرطاجيين أيضا، يوجد وراء أعمدة هرقل، بساحل ليبيا، مكان آهل بالسكان. وعندما يصلون إليه يفرغون سلعهم وينشرونها على الرمال ثم يرجعون إلى سفنهم حيث يطلقون إشارة دخانية للإعلان عن وجودهم بالمنطقة. عند رؤية هذا الدخان يتجه المحليون نحو الشاطئ ويضعون فوق الرمال كمية من ذهب كمقابل لتلك البضائع وينسحبون. وحينها ينزل القرطاجيون من مراكبهم ويقارنون كمية الذهب بقيمة البضاعة فيأخذونها إذا رأوا أنها تساوي قيمة بضاعتهم وينصرفون. أما إذا لم يقتنعوا بذلك فيتركون الذهب ويرجعون لمراكبهم من جديد. وتتكرر العملية إلى أن يرضى التجار[93] "، فهذه القصة تدل على أن المكان آهل بسكانه وأن القرطاجيين لا يقابلون المحليين وجها لوجه مما يدل على أنه مرغوب في بضائعهم وليس مرغوبا فيهم ولا مرحبا بهم كأشخاص. والعملية في مجملها تدل على عدم مغامرة الفينقيين من أجل الاستقرار باليابس. وقد يؤكد ذلك وجود ركامات من الخزف يرجع أقدمها إلى القرن السابع قبل الميلاد فوق جزيرة، ربما مكرية، قبالة الصويرة وليس على اليابس. وهذه

(93) Hérodote, *Histoire*, IV, 196.

إشارة أخرى إلى الاحتراس الذي تحلى به هؤلاء الغرباء على الأقل في فترة ما قبل رحلة حانون. أما بعد الرحلة فالفقرة الأولى من النص تؤكد أن نية حانون هي إنشاء مدن سكانها ليبو. فينقيين بمعنى آخر مولّدين أي أبناء وحفدة زوجين أحدهما ليبووي[94] والثاني فينيقي. وهذا في حد ذاته يفرض القول بأن الأرض التي نزل بها هؤلاء الوافدون ليست أرضا خلاء .

فالفينيقيون لم يخلقوا أبدا مدنا من عدم بالمملكات الأمازيغية عامة ومملكة المغرب خاصة. ففيما يتعلق بمملكة المغرب القديم وإذا كانت المدن المغربية من تأسيسهم فلماذا لم تسمّ بلغتهم؟ فباستثناء اسم روسادير والتي تتركب من "روس" الفينقية و"أدير" الأمازيغية، لا وجود على أرض المغرب لطوبونيميا ولأسماء مدن فينيقية. وحتى في ما يتعلق بكلمة "روس" الموجودة في اسم "روس أدير"، هل وجودها في تركيبة الاسم دليل قاطع على تأسيسها الفينقي؟ لأنه إذا كان الأمر كذلك فيجب اعتبار كل المدن المركبة من "أكرا" (Acra) من تأسيس يوناني. والسؤال هو: ألا يمكن اعتبار كلمة "روس" الداخلة في تركيبة بعض أسماء المواقع الشمال إفريقية المتوسطية نتيجة المساحلة فقط وليس التأسيس؟ ومتى كانت تسمية أجنبية لمدينة دليلا قاطعا على أجنبية تأسيسها؟ وهل التسمية Casablanca، أنفا الأمازيغية، الدار البيضاء بالعربية، إسبانية التأسيس أو النمو؟ إن التسمية الأجنبية والاسم الغريب على أرض ما لا يعني بالضرورة التأسيس. وإذا أضفنا إلى ذلك أن القرطاجيين، حسب المتخصصين، تكلموا لغة مزيجا من الفينقية و الأمازيغية أي نوعا من "الكريول" (Créole) أي أننا سنجد كلمات أمازيغية عند القرطاجيين والأمازيغ في نفس الوقت. وعليه فعندما تقول المصادر اليونانية أو اللاتينية إن تلك كلمة بونية، مثال ذلك كلمة أكادير[95]، فلا يحق أن تنسب أوتوماتيكيا للغة الفينقية بل يجب أن يوضع في الحسبان أن جل هؤلاء المؤلفين، إن

(94) "الليبو" هو النطق السليم للكلمة و ليس "الليبي" الذي تمّ أخذه عن القراءة الفرنسية و التي تقرأ حرف "Y" "I" بينما هو في واقع الكتابتين اليونانية و اللاتينية يقرأ "U" لأن "Y" و"U" رسمان مختلفان لحرف واحد الأول مكبّر Majuscule والثاني مصغّر Minuscule . و بالتالي فالشكلان Libu و Liby شيء واحد و إلا وجب نطق اسم بلد سوريا(Suria=Syria)، سيريا وقبرص (Kupros = Kypros) شيبْرة حتى نتماشى، لا مع النطق الأصلي الذي ورثناه عن مصادر الأوائل ، وإنما مع النطق الفرنسي Syrie و Chypre مكتفين، فقط، بإضافة صفة المؤنث العربي إليها .

(95) يمكن تفسير وجود "كادير" الإسبانية بحكم قرب موقعها من بلاد الأمازيغ والذين نعرف أنهم كانوا يترددون على شبه الجزيرة هذه منذ عصور ما قبل التاريخ.

لم نقل كلهم، جاهلون للغة الفينقية والبونية والأمازيغية وبالتالي لا يمكنهم التمييز بين مفردات كل منها. وما يجب أن يحضر بالبال هو أن البونية ليست فينقية "نقية" وأن الكلمة بها قد تكون فينقية كما قد تكون أمازيغية. وبالتالي يجب الوقوف عند أية مفردة قيل إنها بونية لتعميق الدراسة والتحرّي في شأنها. ولكي نعتبر المفردة فينقية يجب، في نظرنا، أن تكون، أولا وقبل كل شيء، شائعة الاستعمال في فينقيا وأن تنتشر في كل أماكن المتوسط التي تردد عليها الفينقيون. أما إذا وجدت بقرطاجة وببلاد الأمازيغ، فيتوجب حينها التفكير جديا في أمازيغيتها. هناك من ذهب به الأمر، بُغية جعل سالاّ من تأسيس فينيقي - قرطاجي، إلى اعتبار إسلّي لفظا فينيقيا رغم كونه لم يظهر إلا في نصوص تتعلق بأرض المغرب. فإذا كانت الكلمة كذلك فلماذا لم يتم نشرها في كل المناطق التي داستها أرجل الفينقيين في العصر القديم؟ و لماذا لا نجد أثرا لها اليوم في كريت وقبرص ومالطا وصقلية وساردينيا والبليار وإسبانيا ولبنان، موطن الفينقيين، في حين تغمر السهول والجبال والهضاب التي يقطنها الأمازيغيون و التي لم تر يوما أثر وجود الفينقيين بها. وهل أصحاب هذا الطرح يعنون به أن الأمازيغ، الذين ليس لديهم مفردة أخرى غير إسلّي المقابلة لكلمة "caillou" الفرنسية و"الحجرة" العربية، لم تكن لديهم مفردة لنعت الحجر حتى جاء الفينقيون؛ مع العلم أن لفظ "أزرو" يعني الصخرة البارزة (le rocher) و"إمسلّي" الصخرة المدفونة؟

فلابد من جمع دلائل عدة والسهر على تقاطعها. هذا هو المنهج الوحيد، في نظرنا، الذي يمكن أن يعطينا الجواب أو يقربنا منه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إذا كانت هذه المدن مدنهم و من تأسيسهم، فلماذا لم نعثر في البنايات المغربية القديمة عن إحدى أهم تقنيات بنائهم وهي: "opus africanum" وتصميم مدنهم بينما عثرنا على تقنيات بناء وتصميم مدن حضارة أخرى وهي الحضارة المُهلّنة[96] والتي لم يسبق لأصحابها أن احتلوا ولا عمروا المغرب. وهذا دليل على أنه يمكن أن يكون لحضارة حضور في بلد دون حضور أصحابها وبالتالي وحتى لو افترضنا أنه

(96) أنظر على سبيل المثال مقال:

J. Boube, Documents d'architecture maurétanienne au Maroc, dans *BAM*, VII, 1967, pp.263- 367.

عثر على بناء على النمط الفينقي أو القرطاجي فهذا لا يدلّ أوتوماتيكيا على وجودهم كمجموعة بشرية بالبلد. وماذا كان سيقال لو كانت هذه البنايات من تأثير قرطاجي؟ كان سيقال، حتما، هذا دليل قاطع على وجودهم بأرض المغرب وتأسيسهم لمدنه، مع أن الملاحظ هنا هو أنه يمكن نقل تقنية من بلد إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر دون استعمار ولا استيطان.

هذا بالنسبة للدور المنسوب للفينيقيين والأفارقة القرطاجيين في خلق مدن ببلاد الأمازيغ. أما بالنسبة لدور الروميين فعدد المدن المكتشفة بواسطة الحفريات والمذكورة في المصادر المكتوبة والتي يرجع وجودها إلى ما قبل أن تطأ أقدام القوات الرومية أرض شمال إفريقيا، يشهد بذلك. وكل ما هنالك هو أن بعض المدن عرفت بعد قيامها بقرون إنزال مترومنين بها وأخرى عرفت نموا في عهد الإدارة الرومية لكن هذا لا يخول لنا الحق بتاتا أن نطلق عليها صفة الرومية وإلا وجب أن نسمي (على سبيل المثال) الدارالبيضاء مدينة فرنسية وهي التي في سنة 1912 لم تكن تتعدى حجم قرية كبيرة وكذلك الشأن بالنسبة لمدينة خريبكة Khouribga التي اقترن تأسيسها باكتشاف الفوسفاط. بل يمكن أن نذهب أكثر من ذلك، فمن يمكنه أن يؤكد لنا أن المنازل المبنية في العهد الرومي بناها روميون أم مترومنون محليون، رومنة لم تصل بهم بعد إلى درجة يتمكنون من خلالها الحصول على الجنسية الرومية. فقوس النصر الذي يدرس على أساس أنه رومي مهدى لإمبراطور رومي هو في الحقيقة قوس أمازيغي رفع لإمبراطور من أصل أمازيغي. فقد بني هذا القوس لشكر الإمبراطور على منحه الجنسية الرومية وبالتالي لا يمكن أن يرفعه أشخاص مستفيدون من قبل من الجنسية. وإنما من رفعه هم أولائك المحليون الذين لا يتمتعون بالجنسية، أي الأمازيغ، لإمبراطور من أصل أمازيغي وهو كراكلا ابن سيبتيميوس سيويروس يشكرونه على منحهم الجنسية الرومية.

ومن المؤكد أن كل تقنيات البناء ظهرت في هذه المدن قبل مجيء روما. وقد بينت الحفريات أنه تم استغلال كل أنواع الحجر من ضخم وصغير ومنجور وغير منجور إما متلاصقة بأنواع من الملاط أو مترابطة في ما بينها بإتقان فائق عن طريق التثبيت بواسطة الخشب أو الحديد أو الرصاص أو بالطريقة المعروفة

بالتضيد. كما تم بناء الجدران بالتراب المدكوك أو المدعوس أو بالآجر المجفف أو المكوي وتم تبييضها بالجير أو صبغها بألوان أخري. ولهذا حان الوقت لكي يعرف المغاربة أن أجدادهم الأمازيغ لم يسكنوا الكهوف في العصر القديم كما أنهم لم يكونوا شعب رحل فقط.

❑ مجزوءة النقوش والرسوم الصخرية :

يكفي أن نقول إنه لأول مرة تمّت برمجة هذا الموضوع في الجامعات المغربية. وأصبح يعرف أن هناك فنا صخريا تركه أجدادنا على سفوح الجبال وأن الرسوم والنقوش المتمثلة فيه تشكل صورة للحياة اليومية ونسخة مطابقة للواقع المعاش من طرف أمازيغيي ما قبل وما قبيل التاريخ، بل وحتى فترة التاريخ إلى حدود القرن السابع الميلادي. فإنسان ذلك الوقت لا يملك تيليفزيونا ولاصحونا مقعرة (Paraboles). فعندما ينقش ويصور فهو لا ينقش ولا يصور إلا ما يحيط به. فالفن الصخري صورة مطابقة لأصل واقع تلك الفترة وهو تعبير عن البيئة والحياة اليومية لإنسان تلك الفترة من لباس وتزيين ومعتقدات ونمط عيش من قنص وزراعة و تربية مواشي ونوع المواشي والحيوانات الأخرى والطرائد وطريقة قنصها كاستعمال الشرائك أوضربها بالسلاح. وبالتالي فالفن ملخص لحياة إنسان ذلك الوقت ومرآة لعقليته و تفكيره ولحياته الاجتماعية والاقتصادية و الثقافية كما أنه ملخص لبيئة المنطقة. وهو فن رائع بألوان وصباغة زاهية صمدت للزمن وللرياح والأمطار والشمس ولطم الرمال وبقيت ناصعة بهية عبر آلاف السنين تبين، وهي شامخة على الجبال، مدى عبقرية صانعيها. فهذا الفن يبين أن الإنسان الأمازيغي كان مبدعا ملاحظا لما يدور حوله منذ كانت الأفيال ووحيدو القرن والزرافات والأسود والنمور تعيش في أماكن أصبحت اليوم صحراء قاحلة أي في مرحلة تقع قبل الألف الثانية عشرة قبل الميلاد تاريخ انطلاق فترة الجفاف. وهذا ما يدفعنا إلى التأريخ لهذا الفن بعصر الحضارة الموبلحية المسماة عبثا "إيبيروموروسية" وهو العصر الذي يستحق بدوره أن يسمى بالعصر الحجري البيني (Mésolithique) ، وهذا مصطلح يحيل على المرحلة التي يسير تطور المجتمع بها نحو مرحلة الإنتاج أي مرحلة تدجين

النبات والحيوان والتي أبت الهستوغرافيا إلا أن ترفضها لنا لتخلق مصطلح العصر الحجري الفوقي (Epipaléolithique) [97].

والنقش والرسم بهذه الكثافة والتنوع في الهواء الطلق ظاهرة لا مثيل لها على وجه البسيطة. ظاهرة خاصة بالمجتمع الأمازيغي والتي تعطينا مذاقا أوليا لما سيقوم به هذا الشعب من رسوم على جدران المعابد والأهرام. فالفعل هو نفسه ولم يتغير، من أجل التكيف، سوى الحوامل والموضوعات.

ففي الوقت الذي تبين فيه بعض الحفريات القليلة المجراة على أرض شمال إفريقيا أن أرض المغرب (كهف البارود) وأرض النيجير (منطقة أكدز) عرفتا التعدين منذ الألف الرابع قبل الميلاد، يهدي لنا أجدادنا هذا الكتاب المفتوح الذي يبين لنا بما لا شك فيه استعمالهم لأنواع من الأسلحة من حربات ودروع ومجانّ ونبال وأقواس وفؤوس وسنان وخناجر وأطبار وسيوف. ومما يؤكد ذلك ما جاء في رسوم الجدران الفرعونية والتي تتحدث عن غنم 9.000 سيف من البرونز خلال القرن الثالث عشر ق.م من الليبُوويين أي الأمازيغيين الواقعة أرضهم غرب مصر[98]. كما يبرز بوضوح تام استعمالهم للعربة ويبين دقائق مكوناتها من عجلات ومحاور ومصطبات وعرائش ومقارن وكذلك طريقة ركوبها من طرف الأمازيغيين والأمازيغيات. ويثبت ما جاء في النصوص وخاصة نصوص جوستينان التي تتحدث عن أسبيتي بنت الملك يارباس (نهاية القرن 9 قبل الميلاد) والتي كانت تحارب وهي تقود العربة. ويؤكد ما جاء في كتابات هيرودوت الذي يخبرنا أن الأمازيغيين هم من علم اليونانيين والمصريين الركوب على العربة التي تجرها أربعة خيول. خيول يرجع وجودها بأرض شمال إفريقيا، وحسب أحدث الحفريات، إلى الألفية الثلاثين قبل الميلاد. خيول دجنها الأمازيغيون وروّدوها وركبوها كما خلقتها الطبيعة وكأنهم

(97) ولا مبالغة في ذلك في نظرنا لسببين: الأول هو أنه لحد الساعة كل التواريخ المقترحة لا تعتمد على حجج دامغة. والثاني هو أنه إذا كان إنسان كرومانيون والذي يقابله انسان الحضارة العتيرية في شمال إفريقيا يمكنه أن يخطط ويرسم منذ الألف الثلاثين قبل الميلاد فلا مبرر أن لا نرى في رسومنا ونقوشنا أيادي شعب عاش في نفس الفترة. وحتى إذا أسقط أحدهم على الماضي واقع الحاضر وآمن بتخلف الشعب الذي عاش على هذه الأرض حتى في ذلك الوقت فنظن أن مدة عشرة أو خمسة عشر ألف سنة والتي توصلنا إلى 20.000 سنة قبل الميلاد أي إلى بداية العصر المويلحي، كافية لهذا الشعب للوصول إلى ركب سلالة الكرومانيون "المتفوقة".

(98) O.Bates, *The Eastern Libyans*, London, 1914, p. 151.

قطفوها منها. فمهارة الأمازيغيين في ركوبها وهي عارية، وهو أمر انفردوا به في حوض المتوسط وأبهروا به اليونانيين والروميين، تبين بجلاء أنهم أخذوها مباشرة من الطبيعة ولو استوردوها لركبوها مكسوة و على طريقة الشعب الذي تم استيرادها منه. أما في ما يتعلق بالحيوانات الأليفة الأخرى فلا شك أن تدجينها قد تم قبل تدجين الفرس بكثير. فالمنطق يريد أن يكون تدجن الحيوانات الضعيفة جسميا قبل القوية لأنه يسهل السيطرة عليها. ضعف قوتها الجسمية بالمقارنة مع الفرس يوحي بأنه تم تدجينها قبل السيطرة على هذا الحيوان القوي. وقد تم قبل ذلك بدون شك تدجين ثم بعدها تربية الغنم والماعز والبقر. فلوحات عديدة تزخر بتمثيلها هذه الحيوانات فرادى وقطعانا وتؤكد لكل الأجيال أن تدجينها وتربيتها واستغلالها قد تم منذ زمن بعيد بالنسبة لتدجين الفرس. كما تبين أن الكبش المتوج الذي كان يتم تقديسه لكونه يقدم للإلاه آمون يرجع وجوده بشمال إفريقيا إلى الألفية السادسة قبل الميلاد أي قبل أن تتبناه شعوب في الشرق، وقبل أن تصلها من أرض إفريقيا كذلك فكرة وحدانية الإلاه عن طريق موسى المصري عليه السلام. كما تبين هذه الرسوم والنقوش مشاهد زراعية تؤكد ما وصلت إليه الحفريات والتي تبين أن الأمازيغيين عرفوا زرع الحبوب منذ الألف الخامس قبل الميلاد على الأقل.[99]

وعلى عكس ما أريد ترويجه أن الأمازيغيين كانوا يمشون حفاة وعراة فإن هذه اللوحات تعري وبكل وضوح هراء من كتبوا ذلك بل وأكثر من ذلك[100]. وقد كانت المادة المستعملة تتكون من الجلد أو ثوب النسيج وكل هذا تؤكده الحفريات والنصوص. ومن أهم ما جاءت به هذه النصوص قول هيرودوت أن لباس الإلاهة

(99) التوصل إلى زراعة الحبوب قد تقع في مناطق مختلفة في نفس الوقت. فجمع الحبوب البرية وتجفيفها وتنقيتها أمام المغاور يجعل أن بعضها يسقط على الأرض وينبت في السنوات الموالية ومن تم تحصل الملاحظة بأن دفن حبة في الأرض بجوار إقامته تعطي نفس الحبوب الموجودة على مسافات بعيدة. وهذا يبعدنا عن أطروحة دور النمل في نشأة الوعي بالزراعة عند الإنسان. ولا يستبعد، وكما يراه العديد من العلماء، أن تكون النساء هن اللواتي بدأن هذا النشاط. وهذا يفسر الظاهرة التي تجعل ربات الخصوبة كلهن نساء.

(100) جاء في "كتاب الأخبار الطوال" (ص. 12 و13)، لمؤلفه أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري ما يلي "قالوا: وإن أبرهة تجهز وسار في بشر كثير يؤم أرض المغرب، واستخلف أرضهم، وسار حتى انتهى إلى أمة من الناس، أعينهم وأفواههم في صدورهم، ويقال إنهم أمة من ولد نوح عليه السلام، غضب الله عليهم، فبدل خلقهم، فأعطوه الطاعة، وانصرف راجعا، فمر بأمة من الناس، يقال لهم النسناس، للرجل والمرأة منهم نصف رأس، ونصف وجه، وعين واحدة، ونصف بدن، ويد واحدة، ورجل واحدة، يقفزون قفزا في أسرع من حضر الفرس الجواد، وهم يهيمون في الغياض التي على شاطئ البحر، خلف رمل عالج... فسأل عنهم، أخبر أنهم أمة من لد وبار بن إرم بن سام بن نوح."

آثينا مستوحا من لباس الأمازيغيات ولا نرى مبررا للطعن في ما جاء به المؤرخ اليوناني والذي من المستبعد أنه يرفع من قيمة الأمازيغ على حساب قيمة قومه. والحق ماشهد به العدو. وهناك كذلك ما جاء في كتابات سترابون والتي يتبين من خلالها أن الأمازيغيين يهتمون بنظافتهم وبمنظرهم الخارجي ويزينون أنفسهم بالحلي ويلبسون ألبسة من الثوب المنسوج ومن الجلد. وأن جلود الحيوانات المفترسة كلباس أو فراش كانت مقصورة على قادة الحرب وكأنها شهادة على أعمال قنص شجاعة قاموا بها من قبل. وتأتي هذه الرسوم والنقوش لتبين مدى تنوع اللباس الأمازيغي منه ما هو للرجال ومنه ما هو خاص بالنساء ومدى غنى فكر الصانع وجمال منتوجه بل وأحيانا وأنت تتأمل بعضه تحسب أنك أمام معرض من معارض أزياء دور موضى باريس. ومن بين أنواع هذه الملابس المنقوشة أو المرسومة نذكر على سبيل المثال الجلباب (أقيدور) والعباءة (أبرنوص، أزنار وأسلهام) والسروال (أكرباي) والوزرة (تابانكا) والتنورة (أزفال) والفستان (أتفاس) والخمار (أبربور) والنقاب (أكنبوش) والروان (تارغيوين) والقبعة (تارأزال) والنعال (أركسن وتورزين) والحذاء (الريحيت، أدوكو) والحلي من قرط (أخرصي وتاخرصيت) والحلقة (تيوينست) والدملج (أربك) والخاتم (تيسيغت) والقلادة تاسديت أو تازرا) والخلخال (ألكز) والمشبك (تيزرزيت وتاسغنست).

ومن أكبر الهدايا التي قدمها هذا الكنز من المصادر نذكر كتابة تيفيناغ (المسماة ليبووية من طرف المثقفين الفرنسيين) والتي ظهرت في أعالي الجبال وبالضبط بعزيب نيكيس والتي أدخلتنا في عصر التاريخ[101] دون أن نعي بذلك[102] منذ الألف الثانية قبل الميلاد على الأقل أي قبل أن تغادر مراكب الفينيقيين موانئ صيدا وصور بقرون. ونقول، ونؤكد على ذلك، أنه لا أحد يمكن أن يجزم أن الأدوات المعدنية

(101) يرجع أول أثر مكتوب باللغة اللاتينية إلى القرن الخامس قبل الميلاد. وذلك بفضل نقيشة عثر عليها على مشبك بمدينة برينيست Préneste الواقعة باللاتيوم جنوب شرق روما.

(102) بدل الاعتراف بالعجز عن معرفة مضمونها، وبالتالي عن اختراق خبايا تاريخ المنطقة، يعمل الباحثون، ولتجنيب أنفسهم عناء اللوم الواقع على عاتقهم كمختصين، بمبدأ "كم حاجة قضيناها بتركها". ولإخفاء عجزهم، تجدهم يلجأون إلى حل بسيط وتبسيطي في نفس الوقت، وهو الاعتماد على الجاهز، أي ما كتب حول زيارة الفينقيين أو رحلة حانون، لاسيما وأن نتائج ذلك ليست أكثر من كونها تختزل تاريخ منطقة متخلفة اليوم والتي لا يمكنها في نظرهم إلا أن تكون كذلك بالأمس. ويشبه هذا الموقف موقف من يقول بأن مصر لم تدخل التاريخ إلا مع اليونانيين (في حالة افتراض عدم فك الكتابة الهيروغليفية).

المنقوشة بجانب النقيشة والتي تم تأريخها بالألف الثانية قبل الميلاد هي من برونز وليست من نحاس، هذا الذي يؤرخ له بالألفية الرابعة بالنسبة لأرض المغرب. فهذه الكتابة الهندسية الشكل لا تشبه في شيء الكتابة الفينيقية الدودية الشكل، والتي كان من الواجب أن تكون مفخرة للمغاربة أجمعين، لأنها خرجت من رحم أرضهم، بدل محاولتهم تجريد أنفسهم منها ونسبتها إلى الشعب اللبناني الذي لو علم بذلك لرحب بالهدية دون تردد لكونها تغني حضارته. والمعروف حول تطور الخط هو أن الكتابة الدودية والتي تدل على نوع من السرعة في الأداء والمرونة هي التي تتمخض عن المرسومة بشكل هندسي محدب وليس العكس.

ومما يجب التنبيه إليه، والذي تؤكده هذه النقوش والرسوم، هو وحدة الشعب الذي كان يقطن المجال الذي ستغطيه فيما بعد مملكة المغرب القديم في الفترة التاريخية. فعلى أرض المغرب والثلثين الغربيين للجزائر عثر على أدوات نحاسية وعلى فخار بالمغرب الشرقي يرجع تاريخه إلى 7010 قبل الميلاد[103]، وعلى مقابر دفن بها أناس دون سلاح بجانبهم. وعليها ظهر خط خاص من تيفيناغ المعروف عند الغربيين بالخط الليبُووي. واختصت صخورها بنقش الأسلحة بطريقة ما يعرف بتازينا. وعلى أرض هذه المنطقة كانت تتبع طقوس دفن خاصة و تتجلى في نزع الأسنان الأمامية للموتى في نظرنا وليس للأحياء[104]. وذلك قصد وضع المأكولات في أفواههم. وكذلك الشأن في ما يتعلق بصبغ العظام بعد تحلل الجثة وليس قبل

(103) **A Mekdad, J. Eiwanger et alii,** Recherches préhistoriques et protohistoriques dans le rif oreintal (Maroc) , *Rapport préliminaire dans sonderdruck aus, Beiträge zur allgemeinen und vergleichenden archäologie, Band 20, 2000*, (cf. le résumé en arabe p.164).

(104) يستحيل أن تتم عملية القلع هذه على الأحياء كما تريده الهستوغرافيا الأوروبية وعلى رأسها الفرنسية التي تعمل على إظهار الشعوب غير شعوبها في صورة الهمجية والقسوة وذلك لأسباب منها: أولا أن كل الدلائل تشهد أن المجتمع المُوَيْلحي كان مجتمعا مسالما، تعمه علاقات المودة والتضامن، وبالتالي يصعب تصديق أن يلجأ أهله إلى عادة تعذيب ذويهم؛ ثانيا وحتى إذا افترضنا قسوة قلوب أفراد هذا الشعب فكيف يمكن تفسير، تقنيا، طريقة هذا القلع؟ هل كانت لديهم ملاقيط لإنجاز العملية؟ وهل كانت تلك الملاقيط، ونحن في العصر الحجري، من حجر ؟ وهل يمكن صنع الملقاط من هذه المادة؟ أما أن تكون العملية هي التكسير وليس القلع فأترك القارئ يتأمل في طريقة إنجاز العملية وعواقب آلامها الدائمة. أما أن تُجرى العملية بواسطة خيط، فهذا في نظرنا شيء ينبغي إثباته. ذلك أن الخيط المطلوب للعملية يجب أن يتوفر فيه شرطان أساسيان: أوّلهما أن يكون رفيعا حتى يمكن تمريره بين أسنان متماسة. وثانيهما أن يكون قويا، متينا حتى يمكن انتزاع أسنان سليمة. وهذان الشرطان لا يتوفران حاليا، حسب علمنا، إلا في خيط النيْلون للقرن العشرين. وحتى لو افترضنا أن هذا المجتمع قد بلغ من التقدم الصناعي ما مكّنه من صنع خيوط من هذا الطراز، فهل هذا يفيد أوتوماتيكيا أن العملية كانت تُجرَى على الأحياء؟ فما قد يؤكد، في ظننا، أن عملية القلع هذه، أو حتى الانتزاع، قد تكون على الأموات وليس على الأحياء، كونها غير عامة. ذلك أنها كانت تتمّ، في نظرنا، عند الضرورة فقط، أي عندما تكون أسنان الميت السفلى والعليا متماسة و بالتالي لا يوجد منفذ "لتغذيته". أما إذا مات الشخص وفمه مفتوح فلا ضرورة لذلك.

ذلك[105] لتحل الصباغة الحمراء محل الدم واللحم لجعل الميت العزيز يحيى حياة أخرى. وإذا أضفنا ما قاله سترابون حول التشابه بين سكان هذه المنطقة من حيث سلاحهم ولباسهم وعاداتهم وأن سكان المغرب كانوا يسمون هم كذلك بالنوميديين، كل هذا يبين بأن نهر ملوية لم يشكل يوما حاجزا بين المنطقتين الواقعتين شرقه وغربه ويوحي بأن مملكة صوفاقس قد تكون في الأصل جزءا من مملكة المغرب القديم. فقد كانت مملكة صوفاقس تصل من جهة الشمال حتى أرض طنجة. وكانت مملكة باكا في نفس الوقت تمتد، من جهة الجنوب، حتى منطقة الأوراس التي تحد جنوبا مملكة الماسول. وإلا فكيف يمكن تفسير مرافقة خيالة الملك باكا للأمير ماسينيسا حتى حدود مملكة أجداده المحدودة الرقعة آنذاك لو كانت المنطقة المجتازة من طرف الخيالة في يد صوفكس وهو عدو لماسينيسا. وهذا ما قد يفسر، في نظرنا، إلحاح أبوقس، في ما بعد، للحصول على ثلثي نوميديا. أما فيما يتعلق بتسمية ساكنة المغرب الأقصى بالموريين فهي راجعة إلى غربية موقع بلادهم فقط. فهذا الموقع المجاور لبحر الظلمات هو الذي جعل اليونانيين يسمونهم بهذا الاسم الآتي من الكلمة اليونانية "موروي" أي الظلام. ولا يخفى على أحد أن المغاربة يسكنون بجوار بحر عرف في القديم والوسيط ببحر الظلمات، (la mer des ténèbres) والظلمات في الأمازيغية هي "تِلّسّ" "Tillas" ومفردها تالّسّت. و بالتالي فلا يستبعد كذلك أن تكون كلمة أتْلسّ (Atlas) والتي أطلقها القدماء على جبال بلاد المغرب القديم وسكانه، مركبة من "أيت" Aït و"تِلّسّ"، أي أهل الظلمات. ومع الإدغام أصبحت "أيت" و" تِلّسّ " = أيتّلس وبعد سقوط الياء الساكنة، صارت "أتّلس". أما تفخيم التاء طاء فناسخو الكلمة إلى العربية هم من استحلى ذلك. وهكذا، ومنذ العصور الغابرة، كان المغرب يعد غربيا وكل التسميات تنعته بذلك. ونستغرب أن يكون المغاربة من بين من لا يعدّونه كذلك، في حين يضفون الصفة نفسها على دول أوروبية تقع جغرافيا شرقه، كفرنسا وإيطاليا وألمانيا مثلا.

(105) هذه الأطروحة التي تصور الأحياء وهم يزيلون لحوم موتاهم بمكاشط من جحر لا تستند على أي دليل. وصبغ العظام باللون الأحمر يتم في نظرنا بعد تحلل الجثة وليس قبله .وظاهرة وضع الجثة حتى تحلل قبل إخضاعها للطقوس لا يزال معمولا بها حتى اليوم وذلك عند شعب الأسمات (Les Asmats) بغينيا الجديدة بمنطقة أوسيانيا. وهذا يفسر الوضعية الفوضوية، التي طرحت مشكلا للباحثين، والتي توجد بها عظام الهياكل بالمقابر التي تم اكتشافها.

ومجمل القول يجب أن نبلغ لطلبتنا أنه، سواء أحسوا بأمازيغيتهم أو بعروبتهم، فهذا التاريخ تاريخهم. فهو تاريخ الأرض التي خلقوا عليها وترعرعوا فوقها ويأكلون من خيراتها ولا يحتاجون تأشيرة لدخولها. فيجب إذن أن يدرسوا تاريخ بلادهم بعلمية ونزاهة ويرعوا تراثها بعناية كبرى. فبجيناتهم جينات ذلك الهيكل العظمي الذي عاش في فترات غابرة والفخار الذي يتم العثور عليه بأرضنا كان في القديم بيد إحدى جداته وأنه من صنع أحد أجداده وبالتالي يجب العناية به ورعايته بدفء وحب. وأن الطريق التي يسلكها في وليلي أو باناسا أو ليكسوس قد صنعها ومشى عليها أجداده وأن تلك النقود التي يعثر عليها اليوم قد سكها ولمستها أيدي أجداده قبل أن تقع بين يديه. تلك ذاكرته وذلك تاريخ وطنه. والأمة بدون تاريخ يستمد منه الشعب فخره واعتزازه كالإنسان بدون ذاكرة أو بدون معرفة أصله. فالشعوب تخترع تاريخها وتصنعه لتزرع و لتربي الثقة في نفوس مواطنيها ولتجعل شخصيتهم مبنية متراصة وليست فارغة مثل القصبة يدخلها الريح من حيث أتى فتكون جاهزة لتمر بها كل الأفكار الهدامة المستوردة من البلدان التي يقال له إن فضلها عليه كبير.

ولتهيئ الطالب للخوض في ميدان البحث، يجب أن نربيه على العمل انطلاقا من المصادر المكتوبة من كتابات المؤرخين والبيوغرافيين أو تقارير الرحالة أو تآليف الطبيعيين والجغرافيين والأدباء ورجال الدين والتي كما يعلم الجميع منها ماهو قريب من الأحداث أو معاصر لها ومنها ما هو بعيد. وإيمانا منا بأن معيار القرب زمنيا أو جغرافيا من الحدث أو البعد منه لا يضمن حياد المؤلف وصحة ما جاء به، نرى من الضروري حث الطلبة على الإلمام بحياة المؤلف وميولاته وبيئته وأفكاره وانشغالاته والخلفيات التى كانت وراء كتابته النص أي الظروف الموضوعية والذاتية التي تمخض عنها المكتوب. فمعرفة حياة المؤلف مهمة جدا وكذلك وسطه الاجتماعي واهتماماته السياسية وتحركاته، إن كانت هناك تحركات، معرفته أو عدم معرفته للغة المحليين ولمجتمعهم، كل هذا يزيد أو ينقص من مصداقية المؤلف والمكتوب. ولابد من معرفة أن من كتبوا باللاتنية واليونانية في العصر القديم وبالعربية في العصر الوسيط جلهم إن لم نقل كلهم يتحاملون على المحليين. وإذا جاؤوا بشيء إيجابي فلكونه فرض عليهم فرضا وبالتالي يجب وضعه محل الثقة لأنه

كما يقال وقلناه من قبل "الحق ما شهد به العدو". والغرض من هذا هو كتابة تاريخ بتحاليل تعتمد على المصادر وليس نقل التحاليل الجاهزة من لغات أوروبية إلى اللغة العربية بما في ذلك من تحريف وقلب للمعاني (contresens).

إلى جانب النصوص المكتوبة يجب حث طلبتنا على الرجوع بطبيعة الحال إلى نتائج الحفريات والتعامل معها هي أيضا بحذر. فهناك الثابت منها مثل البنايات والزخرفة والفسيفساء وهناك المنقول من نقود وخزف ونقائش. فوجود نقود أو نوع من الخزف هنا أو هناك لا يثبت وجود الدولة أو الشعب الذي صدرت عنه بالمكان الذي تم فيه العثور عليها. فقد نجد نقيشة فينيقية أو "بونية"على شقفة من خزف[106] بالميكسيك أو نقودا رومية بالبرازيل فهذا لا يعني وجود الفينيقيين يوما بالميكسيك ولا الروميين بالبرازيل. فهذه أشياء منقولة يمكن أن يسافر بها شخص عاش في فترة تقع قرونا بعد الفترة التي تم إنجازها فيها وسافر بعيدا بآلاف الكيلومترات عن المكان الذي صنعت به. والبحث الأركيولوجي معرض لتأويلات الباحثين فيه. فالتأويلات تختلف حسب اختلاف تكوين وكفاءة المُؤَوِّل. وكم من قطعة خزف تم إبعادها وأخرى تم وضعها من أجل دعم أطروحة يريد المُؤَوِّل إبرازها. وكم من تأويل مغلوط لمادة أركيولوجية قام به البعض نظرا لتأثرهم بتأويل هذا النص أو ذاك. فالأركيولوجيا ليست بمادة علمية محضة. وإذا كانت تقنيات الحفر علمية فإن تأويل المادة يبقى نسبيا وناتجا عن نظرة الشخص وعن تكوينه: هل ينقب بعقل مجرد أم أنه ينطلق بفكرة مسبقة تجعله يلجأ إلى التغليط والتزييف للوصول إليها. وبالتالي فالتأويل الأركيولوجي يبقى موضوع نقاش مادام ذلك التأويل لم يؤكد من طرف باحثين آخرين. والدليل على ما نقوله هو أننا، وأمام نفس الموقع ونفس المادة، نرى الأركيولوجيين يطعنون في تأويلات سابقيهم ثم يصبحوا هم بدورهم عرضة انتقاد من طرف لاحقيهم. ولهذا وجب التنبيه لذلك والتعامل مع التأويلات الأركيولوجية بحذر.

(106) نعرف جميعا أن الفينيقيين ثم القرطاجيين كانوا بأرض إيبيريا سواء قبل الغزو الرومي أو بعد دخول المسلمين إليها (أنظرأعلاه الأفارقة الذين يبحثون عن انسابهم). فمن الممكن أن يكون أحدهم من بين المشاركين في كشوفات القرن السادس عشر نحو أمريكا وحمل معه إناء عتيقا كان يُعزّه.

فالنصوص وحدها غير كافيه والأركيولوجيا وحدها غير كافية أيضا للقيام ببحث جدي. و من يعتقد أن الاعتماد على هذه الأخيرة كاف فهو يعود بنا إلى فترة ما قبل التاريخ التي يتم البحث فيها دون وثيقة مكتوبة.فالموضوع مثله مثل الجسد تشكل الأركيولوجيا هيكله والنصوص لحمه وبدون الاثنين يصعب القول بأن البحث علمي مكتمل.(107)

والشيء الذي يجب التنبيه إليه هو أن المراجع باللغات الأوروبية تكون عادة مكتوبة بنوع من الاستعلاء. كما يتم فيها إسقاط تخلف اليوم على مجتمع الأمس ولذا سيطرت فيها النظرة التحقيرية للمحلي. فكونه لا يبدع اليوم فإنه لا يمكنه أن يكون قد أبدع بالأمس. وبالتالي فكل شيء متقن فهو لا يمكن أن يكون إلا من صنع الأجنبي. أما الخشن فينسب وبكل عفوية لأجداد ذلك المتخلف اليوم. ونسي هذا النوع من الباحثين أن مراكز الحضارة تتغير. فكل المؤشرات تبين أن الصحراء كانت مهدا للحضارة وربما لأولى الحضارات. وها هي الآن قاحلة جرداء فقيرة. وكانت مصر وبلاد الرافدين في مقدمة معاقل البشرية وهاهما متخلفان اليوم. وبعدهما انتقلت الحضارة إلى بلاد اليونان ومن منا كان سيصدق تقدم يونانيي العصر القديم لو لم نعثر على مخلفاتهم؟ وبعدهم جاء الروميون وتلاهم المجتمع الإسلامي وخاصة الغربي منه فمرت الحضارة إلى أوربا ومنها إلى أمريكا والبقية ستأتي ربما مع الدول الأسيوية. بل عندما نقرأ لهؤلاء "الباحثين"، لا نجد أي اعتراف بوجود المحلي اللهم عند ذكره كهمجي سالب و ناهب و ظالم للمعمر المسكين الذي يجب أن يعيش في طمأنينة على إقطاعية شكلها بعد انتزاعه لأراضي المحليين.

وأما المراجع المكتوبة بالعربية فأغلبيتها تكتفي بمقدمة يعلن فيها صاحبها بأنه لا يرضى بالتاريخ الكولونيالي. وبعد ذلك بسطرين تجده يعود لما كتبه الكولونياليون ويستمر في اجترار نفس الأفكار ويساهم في نشرها أكثر من ذي قبل. فينقل نفس

(107) بل وإلى جانب الأركيولوجيا والنصوص، يجب استخدام المنطق. فمثلا أن تنسب خطبة فصيحة باللغة العربية لطارق بن زياد دون التفكير في الجهة التي تلقت الخطبة فهذا، في نظرنا، تفكير مغلوط و مبتور في آن واحد وذلك لأمرين: أولهما أن لاشيء يؤكد أن هذه الخطبة خرجت من فم طارق ابن زياد و المزورون موجودون حتى في العصر الوسط . وثانيهما أن طارق ابن زياد كان على رأس جيش مشكل في أغلبيته (المصادر تؤكد ذلك) من محاربين أمازيغيين، وبالتالي فكيف يعقل أن يخاطبهم بلغة لايفهمونها وهو الذي، نظرا للموقف الحاسم، يفترض منه أن يبحث عن السبل المباشرة والناجعة للوصول إلى عقولهم وقلوبهم من أجل تحميسهم؟

النظرة التحقيرية مستمرا في تجريد المحليين وبالتالي في تجريد نفسه من حيث لا يشعر من كل شيء إيجابي. وبالتالي يبقى حكمه الأول لا يزيد على أن يكون حكم قيمة فقط.

أما أخطاؤنا عبر التاريخ فيجب أن تمرر لشبابنا بطريقة محكمة. يجب التذكير بنقط الضعف دون التركيز عليها لأن تلقين الأخطاء التاريخية والنواقص التاريخية لذات المجتمع شأنها شأن التلقيح. فالأخطاء في نظري مثلها مثل الميكروبات فإذا لم تلقن للذات تبقى معرضة للمرض. وإذا أعطيت لها بكمية كبيرة فقد يؤدي هذا إلى المرض. وإذا أعطيت بكمية قليلة ومدروسة فسوف تجعل المجتمع كالذات محصنا.

والجميع يعلم أن الأمم تصنع تاريخها عندما لا يكون لديها تاريخ. ونحن والحمد لله من أعرق الأمم، لدينا تاريخ مجيد لكننا نطمسه، وفي أحسن الأحوال نُبَهِّته، بل نستورده. فأصبحت أمجاد مغاربية تنسب إلى الشرق بدل الاحتفاظ بها لأنفسنا. كما أضحى المغربي يستورد أمجادا من المشرق ويفتخر بها ظانا أنها له. فصار المغربي في الغرب وذاكرته في الشرق. وبما أنه كما يقول المثل المغربي "**المكْسي بْذيال الناس عريان**" وأن التاريخ تاريخ الأرض وليس تاريخ الشعوب، فقد أصبح المواطن المغربي يعيش وضعا غير طبيعي أضر بعقله وبشخصيته التي أصبحت كما يلاحظ الجميع مهزوزة تفتقد الحصانة الداخلية، لا قدرة لها على مقاومة الإيديولوجيات الهدامة شرقية أكانت أو غربية. فأصبح بعضهم ينبهر للشرق بحكم ما لقن له والآخر للغرب بحكم تقدم هذا الأخير فنتج عن ذلك انفصام في الشخصية فلا هو غربي ولا هو شرقي. فهو بكل بساطة نسخة لكل واحد. والنسخة لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تنافس الأصل. ومن هنا أخذ المغربي يشعر بالدونية[108] إلا من رحم الخالق عزّ وجل.

إلى جانب هذا، يجب تمرين هؤلاء الطلبة على كتابة المصطلحات والأسماء انطلاقا من لغاتها الأصلية، دون المرور بالنطق الفرنسي أو العربي اللاحن في كثير من الأحيان. وهذا شيء يسهل فهمها وتفسيرها. مثال ذلك كلمة "يوكَرثن" التي

(108) لم نهتم بموسيقا كْناَوَا (Gnawa) حتى أثارت إعجاب الأوربيين .وسننتظر حتى يصلنا خبر ما يقوله الأوربيون عن "جيل جيلالة" و"ناس الغيوان" حيث يعتبرهم بعض العارفين منهم بفن الموسيقى بمثابة Rolling Stones المغرب، وحينها نعتز بهم.

أصبحت "يوغرطة" و"ك - أيت وولي " التي صارت "جيتول" و"يارباس" التي أصبحت "يارباص" و"أبوقس" التي صارت "بوخوس" و"ماكيدونيا"[109] التي رغم توفر اللغة العربية على حرف الكاف أصبحت "مقدونيا" وعند الفرنسيين " ماسيدونيا " فنقلنا نطقها مرة عن هؤلاء ومرة عن أولائك وكذلك شأن لقب الشخصية اللاتنية المشهورة "كيكيرو" الذي يعني الحُمّصة والذي أصبح "سيسيرون" في الكتابات العربية تبعا للنطق الفرنسي أو شيشيرون تقليدا للنطق الإيطالي والتي نعرف عنها أن لا علاقة بينها وبين اللغة اللاتنية.

مجملُ القول، وكما يقر به الجميع، هو أن الدراسات التاريخية في المغرب دراسات انتقائية لا تخدم الشخصية المغربية على الإطلاق. بل وأكثر من ذلك فهي تزرع وتنمي في المغاربة عقدة النقص. فالتاريخ الذي يتمّ تقديمه للمغربي ما هو إلا سلسلة من الهزائم. ولا نجد فيه إلا ما يكرس تجريد المغرب من كل ما من شأنه أن يعطي للمغربي الثقة في النفس. فانبهار المغربي بالأجنبي ولو كان هذا الأخير ينتمي إلى بلد متخلف اليوم، راجع إلى ما تلقاه هذا المغربي وهو طفل من دروس في التاريخ حول ماضي هذا البلد.

فنحن شعب يغيب أمجاده ويستحضر أمجاد الآخرين. ونحن أناس نجرد أنفسنا من كل شيء يرفع من قيمتنا. فنسعد عندما ننعت المدن القديمة بالرومية مع أن المصادر التاريخية والأركيولوجية تشهد بعكس ذلك وتبين بجلاء أنها جميعها كانت موجودة قرونا قبل أن تطأ أرجل الروميين أرض المغرب. نسعد عندما نقول بأن مجتمعنا لم يعرف نظام الدولة حتى نهاية القرن الثامن بعد الميلاد. و نسعد عندما ننسب الأرقام المغربية للشرق مع العلم أن هذا الأخير لم يسبق له أن تداولها لا في العصور القديمة ولا الوسطى ولا الحديثة ولا حتى المعاصرة. بل وننزعج عندما تنسب إلينا. كما نسعد ونفرح عندما نقول إن ابن خلدون من أصل يمني مع أن توقيع كتاباته بـ"الحضرمي" قد يجعله ينتسب إلى مدينة حضرموت التونسية وهو الاسم القديم لمدينة سوسة. ونسعد ونفرح عندما نقول بأن كلمة "**لالا**" (سيدتي) من أصل

(109) بما أن العربية تملك حرف الكاف وأن الاسم يكتب بالكاف فلماذا يتم تعويضه في هذه اللغة بالقاف. هذا شيء لم نفهمه حتى اليوم.

تركي ولا نتساءل، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لا نجدها تستعمل في مصر وسوريا والعراق والأردن والجزيرة العربية بينما نجدها في أعماق الجبال المغربية التي لم يسبق لها أن تعاملت مع الأتراك؟ و نسعد ونفرح عندما نقول بأن صناعة "**البزيوي**" تأبطها شخص سوري وحملها حتى المغرب. ولا نتساءل لماذا تحمّل هذا السوري عناء السفر حتى عمق جبال الأطلس ليتعامل مع سكان لا يعرف لغتهم ولم يتوقف لا في سلا ولا في الرباط ولا فاس ولا حتى مراكش ؟ ونفرح ونسعد عندما ننعت جزءا من التراث المغربي بالتراث الأندلسي بدل نعته بالمغربي. فنغيب بالمناسبة كلمة "المغرب". في حين أن الغربيين يسمونه التراث الموري (mauresque) أي المغربي. ولا يخفى علينا جميعا أن هذا الإقليم ظل مرتبطا بالمغرب و المغاربة منذ نشأته حتى سقوطه بما في ذلك عهد الدولة المسماة أموية والتي لم يكن مؤسسها سوى عبد الرحمان الداخل الذي كانت تجري في عروقه 50٪ من الدم الأمازيغي. ونفرح ونسعد عندما نعمم النظام القبلي بل الفوضوي للقرن التاسع عشر على كل مراحل تاريخ الأمازيغيين مفتخرين بأن المجتمع الأمازيغي مجتمع فسيفسائي يتشكل من "ديموقراطيات" قبلية ناسين أن المغرب قد عرف وجود مملكة أمازيغية شاسعة الأطراف في العصر القديم وإمبراطوريات أمازيغية معروفة تحت أسماء أخرى مرابطية وموحدية ومرينية. فلماذا التقصير في حق تاريخنا على عكس ما تقوم به كل الدول بدءا بمصر؟ ألا يعلم المغاربة أنهم عندما يسافرون إلى الشرق العربي أنهم لا يجرّون وراءهم تاريخ الحجاز بل تاريخ المغرب بجلبابه التقليدي المغربي. ألا يعلمون أن الناظر لهم يفعل ذلك من خلال الأحداث التاريخية التي وقعت بمنطقتهم الجغرافية ليس إلا. ألا يرى المغربي أن أخُوّة الشعوب مثلها مثل أخُوّة الأفراد؟ أيستطيع الأخ أن يتخلى عن ثروته وديبلوماته لأخيه الشقيق حتى يتخلى شعب على أمجاده وينسبها لشعب يحسبه أخاه؟ إذن لقد حان الوقت، ونحن نعيش فترة عولمة كاسحة أن نبني شخصية أبنائنا على أسس حقيقية. فلنعد فحص تاريخنا بكل شجاعة ونزاهة ولنسم الأشياء بأسمائها مبرزين ما هو إيجابي في تاريخنا ومحاولين التعرف على ما هو سلبي قصد معرفة أسبابه لتجنبها مستقبلا. ألا ترون بعد كل هذا أنه للتخلص من شعورنا بالدونية، وللتصالح مع ذواتنا أننا نحن في حاجة ماسة إلى ما أسميه بـ "استشفاء تاريخي"؟ (Une thérapie historique).

الممالك الأمازيغية
بين النظام القديم والإصلاح

ذة. ماجدة بنحيون
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الجديدة

مع نهاية الموسم الجامعي الحالي، يكون إصلاح التعليم الجامعي بالمغرب قد أنهى سنته الثانية، وإذا كانت الضرورة العلمية تقتضي انتظار عقد من الزمان لتقييم هذه التجربة والحكم عليها بالنجاح أو الإخفاق، فإن الضرورة التربوية تقتضي وقفة تأن وتأمل من أجل دراسة مرحلية لتقييم بعض النتائج الجزئية[1].

وإذا كان الإصلاح الجامعي يرمي إلى تجاوز مجموعة من العراقيل التي عرفتها الجامعة المغربية منذ نشأتها كالارتجالية في صياغة البرامج، واعتماد بيداغوجيات تقليدية، والتركيز على الطابع الكمي للمعرفة، وضعف التواصل بينها وبين محيطها[2]، فإنه لم يخل كليا من هذه النقائص. وسنتمثل ذلك من خلال مقارنة مادة الممالك الأمازيغية بين النظام القديم ونظام الإصلاح. وسيتم ذلك على المستويات الآتية:

- وضعية المادة؛
- المضمون؛
- الوسائل الديداكتيكية؛
- التقييم.

---

(1) العربي السليماني، حافيظ اسماعيلي علوي، **الإصلاح البيداغوجي الجامعي: المضامين والتمثلات**، مجلة فكر ونقد، عدد 65، يناير 2005. ص. 105.

(2) المرجع نفسه.

1 - وضعية المادة:

من المعلوم أن نسبة مواد التاريخ القديم ضمن المواد التي كانت مقررة بشعب التاريخ هي نسبة قليلة جدا، ومادة تاريخ شمال إفريقيا القديم كانت ممثلة بحصة نظرية واحدة لا تتجاوز الساعتين، إضافة إلى بعض الساعات التطبيقية التي كانت تتمدد وتتقلص بحسب أعداد الطلبة. وهي ظاهرة عرفت ببعض شعب التاريخ فقط.

لقد كانت للأستاذ في إطار النظام القديم، وفيما يتعلق بمادة شمال إفريقيا القديم، صلاحية اختيار أي حقبة من الحقب التاريخية القديمة ابتداء بعصور ما قبل التاريخ حتى بداية الفتح الإسلامي. وهنا نستطيع القول أن تاريخ الممالك الأمازيغية كان مغيبا من برامج بعض شعب التاريخ.

فماذا عن الإصلاح؟

صحيح أن الإصلاح حدد اسم المجزوءة الثانية من وحدة التاريخ القديم لشمال إفريقيا للممالك الأمازيغية في إطار الأهداف التي رسمها، ومن بينها مد الطالب بتكوين يرصد الجوانب الحضارية التي تجعله يلامس عن قرب عناصر الهوية التاريخية للمغرب في تفاعلها مع عناصر حضارية متنوعة. لكن السقف الزمني المخصص لها وهو 24 ساعة للدروس النظرية و8 ساعات للدروس التطبيقية غير كاف بالمرة[3]، هذا إذا افترضنا أن السير العادي للدراسة لم تتخلله أية تعثرات أو توقفات.

2 - وضعية المضمون:

الملاحظ أن النظام القديم، بطول سنته الدراسية، كان يسمح للأستاذ بالتطرق لمحاور متعددة، ابتداء بالمجال والإنسان، ووصولا إلى نظام الحكم والأحوال الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى بعض الإشارات إلى المعالم العمرانية والمعتقدات الدينية وغير ذلك من المظاهر الحضارية التي عرفتها الممالك الأمازيغية.

إن الحيز الزمني للسنة الجامعية في النظام القديم، كان يسمح بالتدرج في المحاور والتوسع في بعض المضامين، إذ كان بالإمكان التطرق في إطار المحور

(3) مسلك التاريخ والحضارة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي الجديدة، الملف الوصفي للمسلك. ص. 10.

الأول -لاسم ليبيا والليبين، وأفري وأفريكانوس وأفريكا، وكذلك لاسم أمازيغ وتموزغا وإيمازيغن[4]. كما كان يسمح بوصف المعالم الجغرافية المميزة لهذا المجال كالأوقيانوس برؤوسه وخلجانه وموانئه، والبحر الداخلي بجل معالمه[5] وصولا إلى ملوية والشليف ونهر تريتونون والأمبساكا، على اعتبار أن الحدود بين الممالك الثلاث كانت تخضع للمد والجزر، بحسب قوة أو ضعف الملوك آنذاك[6]، ونزولا إلى الأطلس والقبائل الجنوبية من جيتوليين وفاروسيين ونيكريتيين وغيرهم.[7] وهذا بطبيعة الحال يتطلب منا الوقوف على مصادر متعددة والمقاربة بينها ومناقشتها، وأيضا الإطلاع على بعض الدراسات التي أنجزت بصدد هذه المواضيع حتى يقف الطالب على هذا التنوع ويستوعب المادة. ويحصل نفس الشيء مع المحاور الأخرى مع التركيز على محورين أو ثلاثة.

وقد ساهم السقف الزمني الطويل نسبيا بدور كبير في إبراز خصوصيات المادة التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

- اتساع مجال هذه الممالك الأمازيغية الثلاث: الموريون والماسايسيليون والماسوليون، من الأوقيانوس غربا حتى الولاية القرطاجية شرقا. ومن البحر الداخلي شمالا حتى الصحراء جنوبا[8]، وهو ما يستدعي منا الوقوف على أهم المعالم الطبيعية التي ميزت هذا المجال؛
- تعدد المجموعات البشرية التي شكلت نسيج هذه الممالك من عشائر وقبائل واتحادات القبائل وسكان حضريين وأجانب، وهو ما يفرض على الأستاذ الرجوع إلى المصادر التاريخية[9] والتقارير الجغرافية والمعطيات الأثرية من

(4) ماجدة بنحيون، **الممالك الأهلية بشمال إفريقيا خلال القرن الأخير قبل الميلاد**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 1989-1990 ص. 42-61. نفسه: الممالك الأمازيغية: محاولة لمعرفة جذورها وامتدادها الجغرافي، مجلة كلية الاداب الجديدة، العدد السابع. 2002. ص.27-22.

(5) محمد مجدوب، **دراسات في الحياة الاقتصادية بموريطانية في القرن الأخير ق.م.** أطروحة لنيل دكتوراة الدولة في التاريخ القديم، جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، 1997-1998. ص. 126-135.

(6) ماجدة بنحيون، **الممالك المحلية الأمازيغية**، مرجع سابق.ص. 22-29.

(7) محمد العميم، **قبائل المغرب وأقوامه خلال القرنين الأولين للميلاد**، رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم، كلية الآداب فاس، 1988-1989 ص. 66-79. وص. 94-97، نفسه، القبيلة والمجال في تاريخ المغرب القديم. نموذج علاقة الرحل بالمستقرين، مجلة كلية الآداب الجديدة، العدد. 8-9. 2004. ص. 89-103.

(8) ماجدة بنحيون، **الممالك الأهلية بشمال إفريقيا**، مرجع سابق، ص.61-67.

(9) المرجع نفسه، ص. 225-311.

نقود وخزف ونقائش وغير ذلك، من أجل استيعاب البنية الاجتماعية والوقوف على الروابط التي كانت تجمع بين تلك التشكيلات الصغيرة ومعرفة علاقاتها بالسلطة المحلية وبالمستوطنين الأجانب؛

- تعدد جوانبها الحضارية[10] وتنوع المصادر بشأن بعض المظاهر، وشحتها بالنسبة لأخرى، وغلبة سمة الفترات الغامضة على تاريخها السياسي، فإذا ما أخذنا مثلا الدولة المورية سيتبين أن علامات الاستفهام تطبع بعض فترات تاريخها السياسي، إذ لا نعرف شيئا عن الفترة الفاصلة بين باكا وبوخوس الأول[11]، ولا عن الفترة المعروفة بخلو العرش[12]، إضافة إلى قلة المعلومات المتعلقة بالجانب الاجتماعي؛

- تعدد مجموعة من المفاهيم والمصطلحات الخاصة بالمرحلة، كمفهوم الدولة والقبيلة والمجال، والمدينة والمملكة والبونقة والرومنة، إلى غير ذلك، وهو ما يتطلب منا ضبطها حتى نبتعد عن الإسقاطات والمغالطات التاريخية. والجدير بالذكر أن مثل هذه المصطلحات التاريخية تتطلب حصتين وأكثر حتى يتسنى للطالب استيعاب مدلولها وتطور استعمالاتها التاريخية. فإذا ما أخذنا مثلا نموذج مصطلح مدينة فسنجد أنفسنا أمام تعاريف ومفاهيم متعددة، تباينت وتنوعت بتنوع الزمان والمكان[13]. ونفس الشيء ينطبق على مفهوم القبيلة والعشيرة وغير ذلك. فكيف للأستاذ في إطار هذا السقف الزمني المحدود تقديم معلومات متنوعة، وكيف للطالب أن يستوعب ويميز بين مجموعة من المصطلحات.

فماذا عن مضمون المادة في إطار الإصلاح؟

- الملاحظ أن مضمون المادة قد تقلص كثيرا، وأصبح التركيز على نقط ضمن محاور معينة، إذ أن محورا واحدا يتطلب منا كما سبقت الإشارة حصصا كثيرة

(10) المرجع نفسه. ص 180-441 مجدوب محمد، **دراسات عن الحياة الاقتصادية**، مرجع سابق. ص. 58-118، وص. 150-166، وص. 184-197. مصطفى أعشي، **نماذج من بعض إسهامات الأمازيغ الحضارية**، مجلة نوافذ، العدد السابع عشر والثامن عشر، غشت 2002. ص. 95-108.

(11) حليمة غازي بن ميس، **مملكة المغرب القديم أو بعض المسكوت عنه في تاريخ المغرب**، مجلة نوافذ. المرجع نفسه، ص.134.

(12) ماجدة بنحيون، **الممالك الأهلية بشمال إفريقيا**، مرجع سابق، ص. 124-131.

(13) نفسه، **حول تأسيس المدن بالمغرب القديم**، ندوة تكريم الأستاذة زينب العواد، كلية الآداب عين الشق، البيضاء، 2003، تحت الطبع.

وسقفا زمنيا أكثر. إذن كيف السبيل إلى الإلمام ببعض المحاور المهمة من مجزوءة "تاريخ الممالك الأمازيغية"؟

- هل بتقزيم معلومات وإقصاء أخرى؟ وبذلك سنسمح لعنصر المبهمات أن يتخلل محاضراتنا ودروسنا التطبيقية، وبالتالي سنضرب بأيدينا الغاية المتوخاة من تدريسنا للمادة وهي الاستيعاب والتقبل بواسطة الاقتناع والمشاركة في الحوار، كما سنضرب الأهداف التي يتوخاها الإصلاح وهي:
    - تمكين الطالب من تكوين جامعي متطور ومنفتح على التطورات المعرفية والعلمية؛
    - تمكينه من معرفة تاريخية حديثة تساعده على فهم أهم القضايا التي يطرحها تاريخ المغرب والتاريخ الإنساني عموما؛
    - مده بتكوين يرصد الجوانب الحضارية التي تجعله يلامس عن قرب عناصر الهوية التاريخية للمغرب في تفاعلها مع عناصر حضارية متنوعة.[14]
    - أم بفرض مطبوعات على الطلبة، على الرغم من عدم مشاركتهم في استيعابها، وهذا ما يؤدي بالطبع إلى الابتعاد عن الهدف التربوي والبيداغوجي الذي وجد من أجله الإصلاح[15]

إن السقف الزمني في إطار الإصلاح الجديد لا يسمح للأستاذ بملامسة مجال الجودة بتقديم معلومات متنوعة، وبدراسة قضايا وفترات مهمة كالفترة الغابرة من تاريخ الدولة المورية، والبونقة، والرومنة والأمزغة (إبراز الخصائص المحلية) إلى غير ذلك من القضايا في إطار الاستعانة بأحدث النتائج الجديدة.

والواقع أن الإصلاح لم يأت بتغيير في مضامين البرامج والمقررات، إذ تم تفريغ المواد القديمة في مجزوءات وحدات أساسية واختيارية -تقسيم اعتباطي أحيانا لهذه الوحدات -ولم تشمل وحدات التفتح التي أضافها الإصلاح، على الغالب، إلا مادة واحدة جديدة وهي المعلوميات، حتى أن البعض ذهب إلى القول أنها إصلاحات هامشية بالنسبة لحركة تداول الأفكار في المجتمع.[16]

---

(14) مسلك التاريخ والحضارة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، ص. 4.

(15) العربي اسليماني، حافيظ إسماعيلي علوي، **الإصلاح البيداغوجي الجامعي**. المضامين والتمثلات، مرجع سابق. ص.111.

(16) عبد الله إبراهيم، **الجامعة والبحث العلمي في البلدان العربية (دراسة في المنهج)**، مجلة الفكر العربي - معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد 97، السنة 20، صيف 1999، ص.51.

3 - الوسائل الديداكتيكية والمادية:

لا جدال في أن الوسائل الديداكتيكية كانت غير كافية إلى منعدمة في أغلب الأحوال، لكن نظام الإصلاح لم يغير الشيء الكثير فيما يتعلق بهذا الجانب. فإذا علمنا أن الميثاق ينص على عدم الفصل بين ما هو نظري وما هو تطبيقي، وتعهد الحكومة بتوفير ما تحتاجه الجامعة من إمكانيات مادية وديداكتيكية بما في ذلك الوسائل التعليمية[17]، فإننا نفتقد لأبسط هذه الوسائل وهي المراجع الضرورية ضمن خزانة الكلية.

إن خصوصيات أي موضوع بعينة تفرض بالتالي آليات ووسائل للتعامل معه قصد كشف مضامينه والتغلب على مبهماته.

إن مادة الممالك الأمازيغية، كغيرها من المواد، تتطلب وسائل تعليمية يمكن إجمالها فيما يلي:

- النصوص التي يجب التعامل معها بكثرة بقراءة البعض منها على مسامع الطلبة، ولو في المدرجات، مع التركيز على أهم المعلومات الواردة بها، على أن يتم إخضاعها للتحليل والتعليق ضمن حصص التطبيقات حتى يتمكن الطالب من الوقوف على كنه المادة انطلاقا من ينابيعها الأصلية على الرغم من أن جل المصادر القديمة ليست محلية، وهنا نشير إلى أننا نفتقد لهذه المصادر في خزانة الكلية، كما أن عملية نسخ النصوص لا تكون دائما ممكنة، أو لا تتزامن مع حاجة الأستاذ والطلبة إليها. خاصة مع تزايد الطلب على عملية النسخ وقلة الأطر المشتغلة في هذا الميدان.

لقد سمح النظام القديم للأساتذة والطلبة -ساعتين بالمدرج وساعتين بالقاعات عن كل حصة تطبيقية -بالوقوف عن كتب على أهمية هذه النصوص والمقارنة بينها، بل مشاركة الطالب في ضبط مكامن الضعف ضمنها كالخلط والتكرار والمغالطة والأخطاء وغير ذلك، من خلال تحليله للبعض منها. والهدف من كل ذلك دفع الطالب للتعامل مع النصوص التاريخية، وجعله يستوعب المادة ويهتم بها.

(17) العربي اسلماني، حافيظ إسماعيلي، **الإصلاح البيداغوجي**، مرجع سابق. ص. 112.

- الخرائط التاريخية التي تفرض الضرورة التعامل معها من أجل مساعدة الطالب على ضبط المجال والمجموعات البشرية والممالك على العموم، وهنا نشير إلى توفرنا مؤخرا على خريطة يتيمة تهم التاريخ القديم لشمال إفريقيا تتعلق بالإمبراطورية الرومانية. فأين نحن من الأهداف التي حددها الإصلاح؟
- المصادر الأثرية التي لا غنى عنها في دراسة المادة، وهنا لابد من إيقاف الطالب على أهميتها، وإبراز مجالات من تاريخ الممالك الأمازيغية كان لعلم الآثار دور كبير في التعرف عليها كما هو الشأن مثلا مع مجموعة من الصناعات التي لم تشر إليها المصادر الأدبية[18]. وفي هذا الصدد لا بد من مشاركة الطلبة في إنجاز مجموعة من العروض حول أهمية النقود والخزف والنقائش وفن العمارة وغير ذلك، مع المقارنة بين نتائجها وبين إشارات النصوص التاريخية، حتى تتم تزكية هذه الأخيرة أو طرحها، لكن لن يتم استيعاب الطالب لنوعية هذه المصادر وأهميتها، إلا إذا وقف على الحفريات وقام برحلات إلى المواقع الأثرية، ووفرنا له ظروف زيارة بعض المعارض والمتاحف وغير ذلك. وإن بعض الأهداف التي حددها الإصلاح تصب في هذا المنحى وهي:

- تمكين الطالب من الوسائل والأدوات المعرفية والمنهجية وتوظيفها في الدراسة والبحث التاريخيين؛
- المساهمة في تطوير البحث التاريخي وجعله عنصرا من عناصر تطوير المجتمع وتنميته.[19]

وعلى الرغم من سعي الإصلاح إلى كسر الحواجز بين الكليات، وإمكانية اقتناء الوسائل التعليمية من كليات أخرى، والاشتغال ضمن الجامعة ككل[20]. إلا أننا لا زلنا نفتقد لأبسط

(18) ماجدة بنحيون، **مساهمة المصادر الأثرية في الكشف عن بعض الجوانب المجهولة من اقتصاد المغرب القديم**، ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، البيضاء، نونبر 1988، منشورات كلية الآداب بنمسيك 1990، ص. 149-163.

(19) الملاحظ أن الأدوات التاريخية التي تم استعمالها لحد الآن متنوعة جدا غير أنها تبقى في معظمها كلاسيكية وتستدعي التفكير في البحث عن أدوات حديثة تعطي نفسا جديدا للبحث في تاريخ المغرب القديم مثل استعمال التقنيات الجيوفزيائية واعتماد صور الأقمار الصناعية واستغلال جل التقنيات الحديثة. انظر. عبد العزيز بلفايدة، سعيد البوزيدي، **تاريخ المغرب القديم بأقلام مغربية، حصيلة وآفاق**، مجلة البحث التاريخي، العدد 2، 2004 ص.71.

(20) العربي اسليماني حافيظ اسماعيلي علوي، **الإصلاح البيداغوجي الجامعي**، مرجع سابق، ص. 105.

هذه الوسائل الديداكتيكية. ثم ماذا سنقتني من الكلية المجاورة؟ (كلية العلوم) هل المصادر التاريخية أم المراجع؟ أم الخرائط التاريخية أم الصور الشفافة؟ أم ماذا؟

والجدير بالذكر، أنه ما فتئ الأساتذة منذ المرحلة الأولى لانطلاق الإصلاح، يشددون على الاهتمام بتوفير الوسائل المادية الضرورية لإنجازه، خاصة وأن المقاييس والمعايير التي يفرضها والأهداف الموصوفة له، تتطلب مجهودا استثنائيا في هذا الباب. لكننا لا زلنا لحد الآن نشتغل بمدرجات وقاعات لا تنسجم مع مواصفات الإصلاح الجديد، الذي يركز على تدريس المجموعات الصغيرة.[21]

إن المسالك بما تتضمنه من وحدات، والوحدات بما تتضمنه من مجزوءات تناسب - حسب الإصلاح - مستوى النضج العقلي للطالب وتعطيه فرصة تنويع ثقافته، والمزيد من التحصيل الكيفي. لكن موقف الطالب من هذه البرامج التي تبتعد أحيانا عن نضجه ورغباته، ومن الامتحانات ككل، مرتبط بموقفه من الطرق البيداغوجية التي ينهجها الأساتذة لحد الآن، حيث أن الدروس التقريرية والمحاضرات الإلقائية لا تزال سارية المفعول حتى في الأنشطة التطبيقية.[22]

التقييم :

على الرغم من كل السلبيات التي عرفها النظام القديم فيما يتعلق بهذا الجانب، إلا أننا نستطيع القول أن طول الفترة الدراسية كانت تسمح للأستاذ بمعرفة الطالب المواظب كثيرا، وذلك ضمن مناقشته لبعض عناصر المحاضرات وحضوره المستمر في حصص التطبيقات، ومشاركته في إنجاز بعض العروض. كما كانت تبيح له طرح أسئلة تركيبية للامتحانات الكتابية يتوخى منها الوقوف على إمكانيات الطالب المنهجية والمعرفية، أو حتى بعرض نصوص للتحليل والتعليق وإرفاقها بمجموعة من الأسئلة.

فماذا عن نظام الإصلاح.

إن التقييم يرتبط بالتحصيل، ونوعية التحصيل تنعكس على المردودية. وفي هذا الصدد يمكن القول إن عدم انطلاق المجزوءات في وقت واحد، وصعوبة إجراء

(21) محمد آيت المكي، **الإصلاح الجامعي إلى أين**، مجلة فكر ونقد، عدد 65، يناير2005 ، ص.71.
(22) العربي اسليماني، حافيظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص. 115.

المراقبة المستمرة التي هي العنصر الأساسي في الإصلاح، وتعويضها بالامتحان الذي من المفروض أن يكون استثناءا، قد أثر بشكل أو بآخر على العملية التقييمية[23].

لقد حدد الإصلاح سقفا معينا لعدد الطلبة المسجلين في كل مسلك، ومع ذلك لا زالت مسالك التاريخ والحضارة ببعض الجامعات تتصدر قائمة المسالك من حيث أعداد الطلبة.حتى أننا نجد أنفسنا أمام أكثر من مائة طالب في الفوج الواحد، وأكثر من خمسين طالبا في حصة التطبيقات الواحدة، فكيف السبيل إلى التعامل معهم جميعا، وتمييز المنتبه منهم والمستوعب والغافل، بل حتى مراقبة إنجازهم للفروض التي طلب منهم القيام بها؟

ثم كيف السبيل إلى تقييم نزيه في إطار هذه المراقبة المستمرة الجديدة وهذا العدد الهائل من الطلبة؟

هل بطرح أسئلة شفوية على الطلبة؟ هل باختبار كل طالب على حدة؟ أم أن الاختبار سيكون على أساس مجموعات؟ وهل المدرج والقاعات الكبيرة فضاء يسمح بإجراء اختبار شفوي؟ ثم حتى إذا ما قبلنا على مضض هذه الإكراهات، كم حصة سيتطلبها هذا الاختبار الشفوي لكي نصل إلى تقييم نزيه؟

أما بالنسبة للاختبار الكتابي، دائما في إطار المراقبة المستمرة، فأعتقد أنه من غير المعقول إجراءه بعد كل حصتين -نضطر لذلك حتى قبل إتمام المحور الأول من برنامج المجزوءة -وإلا سنسقط في الابتذال أو سنضطر لطرح أسئلة بسيطة لا تتعدى جعل علامة نعم أو لا على الأجوبة الصحيحة.

إن الاكتظاظ الذي يعاني منه الطلبة يتنافى مع المعايير البيداغوجية التي يقوم عليها الإصلاح، ولسنا في حاجة للوقوف على الآثار السلبية التي تنجم عن مثل هذا الوضع على كافة المستويات، ومدى تأثير ذلك على المردودية وعلى جودة التكوين التي مافتئ واضعوا الإصلاح يلحون عليها[24].

---

(23) محمد آيت المكي، **الإصلاح الجامعي إلى أين**، ص.71.

(24) المرجع نفسه.

صحيح إن نظام الإصلاح أجبر الطالب على الحضور والمواضبة، ولكن الإيقاعات السريعة التي فرضها،[25] واشتغال الطالب مدة طويلة في الأسبوع بإرهاقه بمجموعة من الحصص المتتابعة والمتباعدة أحيانا على مستوى المجال والزمان، (مثلا وحدة تاريخ المغرب وهي وحدة أساسية تشمل مرحلة الفتح والإمارات ومرحلة الإمبراطوريات، ثم المغرب والمد الإيبيري ثم وحدة شمال إفريقيا القديم وتشمل الإنسان والمجال والممالك الأمازيغية والتدخل الأجنبي) واجتيازه مراقبة مستمرة في كل أسبوع تقريبا، بل أحيانا خمس مراقبات وأكثر في اليوم الواحد، نتج عنه تذمر كبير واستياء، وانعكس ذلك على المردودية وعلى جو الامتحان الذي لم يخل كليا من ظاهرة الغش أو الانتقائية في التعامل مع مجزوءات الوحدات المتعددة، (وحدات أساسية وأخرى اختيارية) كما انعكس على الجو الجامعي ككل الذي لم يخل هو الآخر من ظاهرة الفوضى والعشوائية... وإن النتائج المحصل عليها لحد الآن من حيث عدد الذين استوفوا الفصول أو الوحدات اللازمة كفيلة بالتعبير عن ذلك، وهذا ما جعل الطلبة يتحدثون لحد الآن عن الإصلاح الأعرج.[26]

وعلى العموم ومن خلال تجربة تدريس مادة الممالك الأمازيغية لطلبة السنة الأولى من السلك الثاني لفترة تقترب من العقدين، نؤكد أننا لا نرفض الإصلاح من الناحية المبدئية، ولكننا نرفض النسق العام الذي جاء به، والذي تعرفه الجامعة المغربية منذ سنتين ونعزو ذلك إلى أسباب ذاتية وأخرى موضوعية:

الأسباب الذاتية: تتمثل فيما نشعر به من عياء وتذمر من جراء إعداد عناصر مجموعة من الوحدات، وصياغة نقط المجزوءات وتهييئ مضامينها، ووضع أسئلة الفروض والامتحانات وتصحيحها، وتهيئة برامج الأعمال التطبيقية والسهر على تنويعها، إلى غير ذلك[27].

إن كثرة المجزوءات التي ندرسها، إضافة إلى استمرارية اشتغالنا بتدريس مواد أخرى في النظام القديم، خلقت لدينا نزعة نحو التذمر، وانعكس ذلك على مضامين

(25) العربي اسليماني، حافيظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص. 114 و ص. 116.

(26) محمد آيت المكي، **الإصلاح الجامعي إلى أين**، مرجع سابق، ص.71.

(27) العربي اسليماني، حافيظ إسماعيلي، **الإصلاح البيداغوجي** . مرجع سابق، ص. 111.

بعض المجزوءات التي نكون مضطرين إلى التقصير فيها، وهو ما يتنافى مع الأهداف التي يتوخاها الإصلاح.

الأسباب الموضوعية: تتمثل في انعدام الوسائل المادية والبشرية والديداكتيكية اللازمة لهذا الإصلاح.

إن ما يعاب على هذا الإصلاح هو أنه لم يشرك الطرفين الأساسين، وهما الأستاذ والطالب، في إعداد مشروعه وصياغته النهائية، ثم إن غياب حوار مسؤول مبني على الاقتناع وليس الإقناع أدى إلى وجود حالة من التردد والغموض والالتباس خاصة أن نظام الإصلاح هذا يعرف بعض التعديلات بين الفينة والأخرى[28].

إن ما نسعى إليه هو المزيد من الاهتمام بتاريخ شمال إفريقيا القديم عموما، والممالك الأمازيغية على الخصوص بتوفير جل الوسائل لذلك حتى نتمكن من إبراز خصوصيات هذه الممالك، ومن تصحيح مجموعة من المغالطات التي ألصقت بالمجال والسكان كالأرض الخلاء، والرجال الكسالى. وإن المظاهر الحضارية المتنوعة التي كشفت عنها النصوص الأدبية والأبحاث الأثرية كفيلة برد الاعتبار لتاريخ هذه المنطقة ولحضارة ممالكها.[29]

(28) المرجع نفسه، ص.110-111.

(29) ماجدة بنحيون، **الممالك الأهلية بشمال افريقيا**، مرجع سابق. ص.453.

تجربة تدريس تاريخ شمال إفريقيا القديم بكلية الآداب فاس - سايس "الممالك الأمازيغية المتأخرة"

ذة .ماجدة بنحربيط علمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

فاس-سايس

إن دراسة التاريخ القديم لأرض المغارب تكتسي أهمية واضحة لما حققته المنطقة من ارتباط بتاريخ البحر الأبيض المتوسط ككل من جهة؛ ولأن تاريخها القديم يعتبر القاعدة الأساسية التي شيد فوقها تاريخ العصور الوسطى الإسلامية من جهة أخرى.

ولقد اعتاد المؤرخون والدارسون تقسيم تاريخ شمال إفريقيا إلى ثلاثة فصول: إفريقيا الرومانية "L'Afrique Romaine" وإفريقيا الوندالية "L'Afrique Vandale"، التي تخصص كورطوا في دراستها، وإفريقيا البيزنطية "L'Afrique Byzantine" كما سماها شارل ديهل. لكن يبدو أن الأمر لا يتعلق بمسرحية من ثلاثة فصول إنه تطور تاريخي تفاعلت فيه عناصر داخلية وخارجية لتشكل تاريخ شمال إفريقيا في الفترات القديمة.

فبقدر ما كان للرومان أو البيزنطيين دور في توجيه تاريخ المنطقة، كان للعناصر المورية أو الأمازيغية دور في صنع تاريخها قبل الرومان، وفي مختلف مراحل الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي. لذلك يجب أن نهتم بدراسة أرض المغارب داخل إطار تاريخي موحد تعايشت فيه وساهمت في بنائه عناصر مختلفة محلية كانت أو أجنبية، ولنحاول إبراز التاريخ المحلي لشمال إفريقيا على امتداد تاريخها القديم. ولعل في هذا الإطار تتمحور مادتين أساسيتين ضمتهما وحدة شمال إفريقيا القديم، ضمن البرنامج الجديد لمسلك تاريخ وحضارة، ويتعلق الأمر

بالممالك الأمازيغية أو المحلية والاحتلال الأجنبي، اللذين قصد من ورائهما الكشف عن التاريخ المحلي لأرض المغارب، وإبراز دور العناصر المحلية في صنع تاريخ المنطقة.

كما عرضنا لنشأة المملكة الماسولية وامتدادها الجغرافي الذي انحصر بين مجال نفوذ الماسيسوليين غربا والقرطاجيين شرقا (شمال جبال الأوراس والظهر التونسي والقسم الأكبر من واد المجردة الأوسط). لكن الإشكالية التي تطرح بالنسبة لتاريخ الماسوليين كذلك، هي أن تاريخ المملكة الماسولية بعد عهد ماسينسا، هو في نفس الوقت أحد محاور تاريخ الاحتلال الروماني للمملكة الماسولية والتي تتضمنها المجزوءة الثانية ضمن وحدة تاريخ شمال إفريقيا القديم.

أما بالنسبة للمملكة المورية فلقد حاولت التعريف بسكان موريطانيا والإطار الجغرافي، مع العرض لوضعية المملكة والتعريف بملوكها وأوضاعها الداخلية. وإن تبين بالنسبة لهذه المملكة كذلك أن تاريخها تبلور بشكل كبير في أهم مرحلة من مراحل احتلال الرومان للمغرب الكبير وهي مرحلة احتلال المملكة الماسولية. فشغل بذلك محور العلاقات الخارجية للمملكة المورية وخصوصا مع روما الجزء الأكبر من تاريخ هذه المملكة.

إذا تبين أن هناك تداخل كبير بين تاريخ الممالك وتاريخ الاحتلال الروماني. فالعرض لعلاقة الممالك بروما ولمرحلة سقوط هذه الممالك هو في نفس الوقت عرض لمراحل الاحتلال الروماني لأرض المغارب ولمختلف الخطوات التي سارت عليها روما للسيطرة على المنطقة. بل إن بداية الحديث عن الممالك لا يتم بمعزل عن العرض للحروب البونيقية التي تعد المرحلة الأولى من مراحل الاحتلال الروماني. وبما أنني جمعت بين تدريس المادتين، فلقد حرصت على تقديم مدخل لهما يتناول الحروب البونيقية، كما كنت أقدم بعض النصوص التاريخية في بعض المحاور الخاصة بمادة الاحتلال الروماني، لأتفادى تكرار بعض المعطيات التاريخية التي تناولتها عند دراسة الممالك الأمازيغية.

أما المحور الثاني فخاص بالممالك الأمازيغية التي ظهرت في الفترة المتأخرة من تاريخ شمال إفريقيا القديم، أي في القرن الخامس والسادس الميلادي، فلقد

شهدت هذه المنطقة تطور نواة مؤسسات سياسية يرأسها قادة موريون اتخذوا في غالب الأحيان اللقب الملكي. وهذه المؤسسات قد تعود إلى بداية تراجع الامبراطورية الرومانية عن أجزاء هامة من شمال إفريقيا كموريطانيا الطنجية التي أصبح فيها لقبيلة الباكواط سلطة سياسية واسعة ابتداء من أواخر القرن الثالث الميلادي، ومع سقوط المملكة الوندالية اتسعت حركة استقلال القبائل المورية في مناطق واسعة من شمال إفريقيا .

فهل يحق لنا أن نصنف الإطار السياسي لهذه المؤسسات ضمن الممالك أم نرى فيها مجرد تجمعات قبلية؟ وإذا كان الأمر كذلك أي أنها مجرد تجمعات قبلية ما هو مدلول لقب أرخون وبرانكيبس اللذين استعملا في المصادر الأدبية للإشارة إلى القادة الموريين؟ ولقب ملك الذي استعمل في المصادر الأثرية؟

فكوريبوس الشاعر الإفريقي أشار في يواحانيته إلى استقلال القبائل المورية، ونعت زعيم الموريين بلقب لاثيني وهو Princeps وهذا المصطلح يترجم عادة بالأمير. أما بركوبيوس فلقد استعمل مصطلح أرخون في حديثه عن القادة الموريين، وهو مصطلح إغريقي فهو أحد الحكام التسعة في أثينا وهو يستعمل في بعض الأحيان تفاديا لاستعمال مصطلح ملك βαιλεύς. معنى هذا أن مصطلحي برانكيبس وأرخون يستعملان في معان تتدرج من القائد الأعلى للحرب إلى الملك، ولهذا يظهر الملوك في النصوص التاريخية كمحاربين وقادة للجيش. لكن يبدو أن هذه القيادة الحربية تطورت في المصادر الأثرية والنقائش إلى اللقب الملكي.

وإذا نتبين أن هناك ألقابا متعددة نعت بها هؤلاء القادة الموريون، الملك والأمير والأرخون، مما يؤكد أن مفهوم السلطة الملكية مهما عوضته الألقاب الأخرى فهو لم يختف لدى الموريين، وروما لم تحاربه ولم تشجعه في فترة سيطرتها على شمال إفريقيا . فظلت بذلك ذكرى الملكية القديمة قوية لدى الموريين. ويرى كورطوا أن السلطة الملكية للموريين هي تطور طبيعي للقيادة العسكرية التي أسندها بعض الحكام الرومان لقادة موريين في أواخر القرن الخامس الميلادي مثل سلطة ماستيس Masies الذي عين دوقا لحماية الطرق المؤدية إلى السهول الخصبة في موريطانيا السطيفية ونوميديا من زحف القبائل الرحل، فانتهى به التوسع بعد

اندحار الرومان وتراجعهم عن شمال إفريقيا إلى تأسيس مملكة ظلت مخلصة للنظام القبلي والأعراف المورية والسياسية الرومانية التي تعد أهم مميزات الممالك المورية في القرن السادس الميلادي.[1]

لذلك يرى الدارسون في هذه الممالك إعادة لوضع سياسي سابق تمتع فيه الموريون بسلطة ملكية مستقلة قبل مجيء الرومان.

ومن هنا تطرح ضرورة دراسة الممالك الأمازيغية التي شهدتها الفترة المتأخرة، اعتمادا على ما ورد على سبيل المثال في مصدر بروكوبيوس الذي أرخ للحرب الوندالية وما ورد في المصادر الأثرية والنقائش التي تعود إلى هذه الفترة.

فبروكبيوس أكد سيطرة الموريين على موريطانيا بزعامة ماستيكاس منذ نهاية العهد الوندالي، قائلا:

"في موريطانيا......المدينة الرئيسية هي قيصرية هناك يقيم ماستيكاس والموريين التابعون له، كما أن جميع المراكز في موريطانيا، باستثناء مدينة قيصرية، كانت تابعة له وتؤدى له الضريبة[2]"

> ´´Μαυριτανίας γάρ τής έτέρας πρώτη Καισάρεια τυγχάνει ούσα, ού δή ό Μαστίγας ξύν Μαυρουσίοις τοίς αύτού ίδρυτο, ξύμπαντα τά εκείνή χωρία κατήκοά τε καί φόρου ύποτελή πλήν γε δή πόλεος καισαρείας έχων.´[2]

كما عرفت نقيشة تم العثور عليها في موريطانيا القيصرية وهي عبارة عن إهداء، عرفت بالملك الموري ماسونا Masuna ملك الشعبين الموري والروماني Rex Gentium Maurorum et Romanorum ولعل هذه العبارة تذكرنا بعبارة ترددت في بعض النقائش الإفريقية Rex Gentium Maurorum والتي وردت في نقيشة بوليلي كالتالي Rex Gentis Baquatium أي ملك قبيلة الباكواط التي تعود إلى القرن الثالث الميلادي. مما يؤكد وجود مملكة في الجزء الغربي من موريطانيا القيصرية.

إذا فلنحاول الكشف عن تاريخ هذه الممالك كذلك ونلقي الضوء على تاريخ مرحلة اعتاد المؤرخون على تسميتها بالفترة الغامضة.

---

(1) Courtois (ch), Les Vandales et l'Afrique, Paris, 1955, p. 338.
(2) Procopuis, Bellum Wandalorum; éd Dewing, London, 1916, p.392.

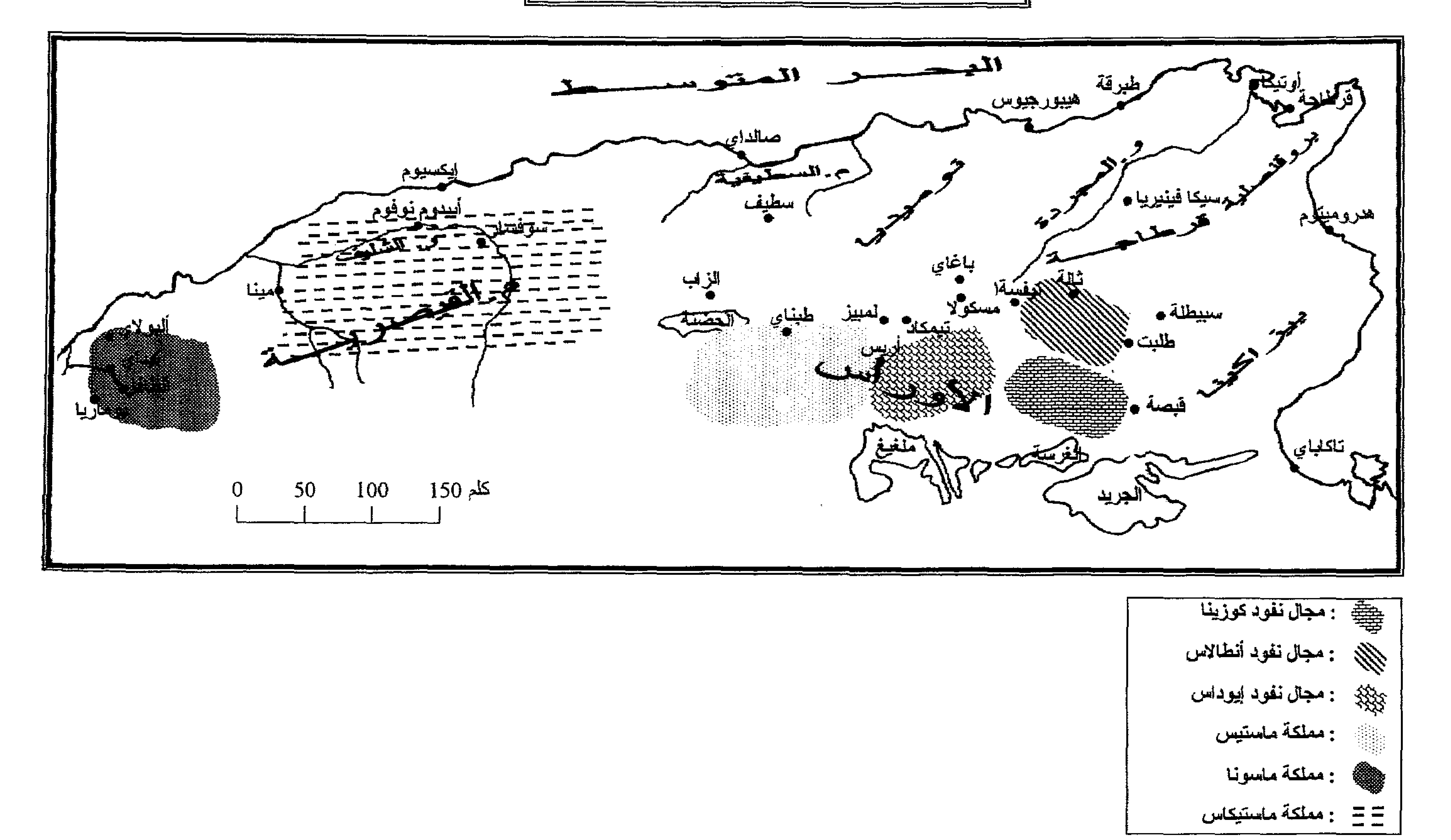
أما المجزوءة الثانية التي تدخل في إطار وحدة تاريخ شمال إفريقيا القديم هي الخاصة بتاريخ الاحتلال الأجنبي التي قسمتها إلى ثلاث محاور أساسية:

- المحور الأول : خاص بالاحتلال الروماني الذي تؤرخ بدايته بالحروب البونيقية ويستمر إلى غاية احتلال المملكة المورية سنة 40 م؛
- المحور الثاني :خاص بالاحتلال الوندالي بين 429 م إلى 533 م، مع الاهتمام بالنتائج التي تمخض عنها هذا الاحتلال المتمثلة في انهيار الحضارة الرومانية وانبعاث العالم الأمازيغي؛
- المحور الثالث والأخير، يتناول احتلال البيزنطيين لأرض المغارب أو شمال إفريقيا.

تلك إذا هي المحاور العامة لبعض مواد وحدة تاريخ شمال إفريقيا القديم التي تعتمد في التاريخ لها والبحث على المصادر إغريقية كانت أو لاثينية، لكن هذه المصادر وإن اهتمت بتاريخ شمال إفريقيا، فذلك لم يكن إلا بالقدر الذي له علاقة بسياسة روما أو بيزنطة التوسعية في هذه المنطقة. فتاريخ الممالك المحلية يرتبط في معظم النصوص الأدبية بتاريخ الجيش وبمنجزات قادته وجنرالاته، مثل حرب يوغرطة لسالوست وتاريخ الحروب لبروكوبيوس وغيرهم، الشيء الذي يفرض إعادة دراسة تاريخ الممالك بناء على ما استجد من حقائق ومكتشفات أثرية.

فالهدف الأساسي هو التعريف بهذه الممالك والوقوف عند فترة حكم الملوك المحليين ولتطورها الداخلي ودراسة بنيتها الاجتماعية ونظاهما الاقتصادي على امتداد التاريخ القديم للمنطقة، حتى يتمكن بذلك الطالب من الوقوف على تاريخ مرحلة هامة يجهل عنها الشيء الكثير إن لم نقل كل شيء. لكن من الملاحظ أن الطالب يجد صعوبة كبرى في تتبع تاريخ الممالك الأمازيغية والاحتلال الأجنبي لأرض المغارب بسبب عدم توفر المكتبات، غالبا، على المراجع والدراسات المهتمة بالتاريخ القديم لهذه الأرض، لذلك ندعو إلى الاهتمام بنشر أعمال الباحثين المتخصصين في هذا المجال والتي بإمكانها أن توفر مادة مهمة جدا ستساعد على المزيد من البحث والدراسة.

مراكز نفوذ القادة الموريين الثلاث و الممالك المورية



محاولة لقراءة جديدة حول الملوك الموريين

ذ. محمد مجدوب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية- المحمدية

شهد المغرب القديم حكم ملوك موريين معاصرين لملوك نوميديين. والأخبار المتوفرة حولهم جميعا تغطي نسبيا فترة حكمهم خلال القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد. وإذا كان التعرف على تسلسل حكم النوميديين ميسرا، فإن ذلك لا يتأتى بالنسبة إلى الملوك الموريين، نظرا لشح النصوص وقلة الوثائق الأثرية.

يبدأ الإشكال منذ الملك باكَا Baga، الذي انفرد نص بالإشارة إلى دوره في أحداث وقعت سنة 206 قبل الميلاد[1]. وهو بذلك معاصر للملك الماسيسولي سيفكس Syphax والملكين الماسوليين كَايا، Gaïa، وابنه مسنيسا Massinissa. وخلافا للملكين سيفكس ومسنيسا نجد باكَا مثل كَايا، لم يصدر عملة تحمل اسمه.

ومن جهة أخرى ورد ذكر باكَا في ملحمة شعرية تخلد بطولات الرومان ضد القرطاجيين في الحرب البونية الثانية[2]. لكن القيمة التاريخية لهذا النص لا تستقيم لكون الشاعر سرد ملوكا آخرين عاشوا بعد هذه الأحداث وهم: ميكبسا Micipsa وبكوس Bocchus ويوغرطة Iugurtha ويوبا Iuba.

بعد باكَا نتعرف على الملك بكوس الأول وهو معاصر للملك النوميدي ميكبسا[3]. ويمكن أن نستقي من بعض المؤشرات أن المُلك انتقل من باكَا إلى بكوس. إذ نعلم أن هذا الأخير كان مسنا وله بنت تزوجها يوغرطة[4]، والراجح أن هذا الزواج تم قبل

(1) TITE LIVE, 29.30.1-4.
(2) SILIUS ITALICUS, 2,110-5; 2,160-5; 3,280-5.

(3) سالوست، حرب يوغرطة، 110.
(4) [illegible]، 80.

وفاة ميكبسا، حيث كان يوغرطة يتطلع إلى الانفراد بحكم بلاده منذ ما قبل حرب نومنصا سنة 133 قبل الميلاد. ولا شك في أنه توخى من هذا الزواج كسب ولاء الموريين" الذين يحبون يوغرطة بقدر ما يكرهون الرومان"[5]، على حد قول سالوست. ثم كان لبكوس ولد يقود الفرسان الموريين خلال حرب يوغرطة.[6]

ومن جهة أخرى نستطيع أن نميز في عملة الملك بكوس عينات أصدرها قبل حرب يوغرطة (الشكل 1) وأخرى بعد هذه الحرب (الشكل 2)[7] وانطلاقا من عدم وجود عملة لملك آخر نستبعد أن شخصا ما حكم بين الملكين باكًا وبكوس. وعليه فإن فترة حكم باكًا شملت النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد. ويجوز القول بأن بكوس خلفه حوالي منتصف هذا القرن ما بين حوالي 150 و140 قبل الميلاد. وكل ذلك مرجح إذا قُدِّرَ لباكًا أن يتولى الحكم في وقت قريب من التاريخ الذي عرفناه فيه وهو سنة 206 قبل الميلاد، وإذا عمر طويلا، وإذا تولى كل واحد منهما العرش وهو شاب.[8]

هناك إشكال آخر حول نهاية حكم بكوس الأول. وقد سبق ترجيح أن وفاته كانت قريبة من سنة 82 قبل الميلاد، حيث انتفض الموريون من جديد في أيام أسكاليس Askalis[9]. والملاحظ أن هذا الأخير استفاد من دعم القائد الروماني سولا Sulla[10]، الذي كانت تربطه علاقة متينة مع بكوس[11]. والراجح أن سولا ساعد أسكاليس لأنه تولى الملك بعد بكوس واتبع سياسته. وأيا ما كان الأمر، فإن عدم إصدار أسكاليس للعملة يفسر قصر مدة حكمه. وأما من تولى بعده في مدة وجيزة أيضا، فسيكون شخصا نصبه الثوار الموريون بعد مقتل أسكاليس في تنكَي Tingé، وبعد انصراف القائد الروماني سرطوريوس Sertorius الذي شارك لصالح الثوار في هذه الأحداث. وقيل إن هذا القائد تخلى للموريين عن ممتلكاتهم ومدنهم

---

(5) نفسه،111.

(6) نفسه، 101 و105 و107.

(7) مجدوب، (1990) ، ص. 71-72 ؛ 1992 ، ص. 55-57، ثم: Majdoub, (1996), p. 294; (1998), p. 1328

(8) مجدوب،(1990)، ص. 60-66، 1992، ص. 57.

(9) Majdoub, (1992), p. 237.

(10) PLUTARQUE., Sertor,. 9.5.

(11) PLUTARQUE., Mar., 10 et 32; Sul., 3 et 5-6.

وحكمهم[12]. وقد سبق أن أثير الانتباه إلى تدخل بومبيوس مكّنوس Pompeus Magnus في موريطانية لإحباط هذه المحاولة. وقد اقتضى الظن أن هذا القائد نصب حينئذ مستانسوسوس Mastanesosus على مملكة الموريين حوالي سنة 81 قبل الميلاد.[13]

وبعد ذلك تم الانتباه إلى الالتباس الذي يكتنف هذا الاسم، اعتمادا على صيغته الأمازيغية وانطلاقا من العملة التي نسبت له، وهي تحمل اسمين مختلفين لشخصين سبق لگسيل أن حسبهما يمثلان مستانسوسوس، جاعلا منه ملكا نوميديا[14]. أما كامبس فارتأى أنه ملك موري، منبها إلى أن عملته تشبه العملة المورية من خلال رسم المغروسات عليها.[15] والواقع أن الأمر يتعلق بنوعين مختلفين من العملة. فالنوع الذي يشبه العملة المورية يحمل اسم مستنس MSTNS[16] وصورة شخص مسن (الشكل 3) والنوع الثاني رموزه مختلفة تماما ويحمل اسم مستنسن MSTNSN[17] وصورة شاب (الشكل 4).

إن هذا الاختلاف بين الشخصين وبين عملتيهما يقتضي أن الأمر يتعلق بملكين. والراجح أن الرجل المسن هو أولهما وهو الذي نصبه بومبيوس ملكا على الموريين. ويمكن التماس سبب يبدو معقولا لاعتباره قد حكم بعد أسكاليس. والسبب هو غصن الزيتون الماثل على عملته، وهو يرمز في نظرنا إلى الاستقرار والسلم الذي عم في عهده، عكس ما حدث من اضطرابات في أواخر عهد بكوس الأول وفي أيام أسكاليس. وهذا مؤشر يسمح باعتبار الملك المسن قد حكم قبل الشاب. ويبدو أن الشاب خلف المسن في تاريخ لا ندريه، وهو ليس ابنه ما دام قد ذكر اسم والده على نقوده، وهو اسم لم يتيقن الدارسون من قراءته. لكن لا يمكن معرفة من منهما دعاه كيكرو مستانسوسوس حينما زاره واتنيوس Vatinius سنة 62 قبل الميلاد.[18]

(12) PLUTARQUE., Sertor, 9,11.
(13) Majdoub, (1992), p. 238; (1998), p. 1322.
(14) Gsell, HAAN, 5, p. 161 et 164; 7, p. 262.
(15) Camps, (1984), p. 304 et 306.
(16) Mazard, (1955), n° 99-100.
(17) Mazard, (1955), n° 101-102.
(18) CIC., Vat. 5,12.

وهكذا لا يجوز التسليم برأي كامبس حينما ظن أن عملة مستنسن تمثل الملك مستانسوسوس وهو شاب، ثم أهمل صيغة مستنس. وراح يحاول قراءة صيغة مستنسن كما يلي: Mastanesosen[19] كما ينبغي الاعتراض على معادلة تبناها كامبس في الموضوع حينما اعتبر أن مستانسوسوس هو مستنسن وهو الملك سوس Rex Sox.[20] بينما الأمر بسيط حينما نلاحظ أن مستنس ومستنسن كلاهما اسم مركب من مست + نَّسْ للأول ومست + نْسَنْ للثاني. وإذا تركنا جانبا الشق الأول مست، فإن كلمة نَّسْ تعني له، أما كلمة نْسَنْ فتعني لهم. وهذه الكلمة الأخيرة وردت في اسم مسنيسا، واسمه الحقيقي هو مسنسن MSNSN كما ورد في نقيشة بونية[21] وعلى عملته بالبونية أيضا.[22] ومعنى ذلك ميس نْسَنْ أي ابنهم.[23] واللبس الذي ينجلي بعد ذلك هو أن الشق الثاني من الاسم (نَّسْ أو نْسَنْ) لا يجوز مطابقته مع سوس أو سوسن Sosen حسب اجتهاد كامبس.

وهنا نتساءل عن اسم الملك الموري الذي دونه الكاتب الروماني على صيغة مستانسوسوس. فهل يجوز أن تكون هذه الصيغة قد خضعت على مستوى نهايتها لتحوير يُناسب حالة إعراب الأسماء اللاتينية. غير أنه من الممكن أن الاسم الأصلي مركب من مستنس أو مستنسن + سوس. وعليه ربما يكون اللفظ الأخير صفة للاسم، كقولنا للعلم المغربي المشهور: المختار السوسي. وهذا رأي فيه محاولة المطابقة بين اسم سوس قديما وحديثا.

ومن جهة أخرى فإن اسم سوس يفرض نفسه كملك موري كتب باللاتينية REX SOS على قطع من الرصاص تُستعمل كقذائف في المقالع، اكتُشفت قديمـا بوليلـي[24] (الشكل 5)، ثم اكتشفها الأستاذ محمد مقدون مؤخرا في تنقيباته بالموقع.[25] وقد ورد اسم سوس على عملة بكوس الثاني حيث نقرأ باللاتينية ما يلي: REX BOCCHUS SOSI F (الشكل 6)[26]،

---

(19) Camps, (1984), p. 306.
(20) Camps, (1970), p. 4 ; (1984), p. 306.
(21) Berthier, (1956), p. 53.
(22) Mazard, (1955), n° 17.
(23) Majdoub, (2001), p. 1221.
(24) Marion, (1960), p.488 et Pl. 16.
(25) Makdoun, (2000), p. 1712.
(26) Mazard, (1955), n° 118-121.

أي الملك بكوس بن سوس. ويبدو جليا انعدام التطابق بين مستانسوسوس ومستنس ومستنسن وسوس.

وهناك ملاحظة أخرى وهي أن الملكين مستن ومستنسن استعملا الكتابة البونية على العملة، عملا بالتقليد السائد لدى ملوك نوميدية وموريطانية قبل تغلغل التأثيرات الرومانية، في النصف الثاني من القرن الأخير قبل الميلاد، حيث تخلى الملوك جزئيا أو كليا عن الكتابة البونية على العملة واستبدلوها باللاتينية. وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الملك سوس الذي استعمل اللاتينية قد حكم بعد مستنس ومستنسن. ولعل قطعه الرصاصية التي تستعمل في المقالع، تدل على أن هذا الملك كان يواجه صراعا مريرا ضد خصومه. وربما كان هذا الصراع المقدر من الأسباب التي أدت إلى تقسيم مجال نفوذ الموريين إلى مملكتين. وفي تقديري إن المعارض لسوس هو ملك آخر يدعى لبتاستا Leptasta[27].

غير أن ظروفا أخرى نجهلها أدت إلى تنحية سوس ولبتاستا بسرعة. وهذا ما يفسر عدم إصدارهما للعملة. بينما ظفر بكَود وبكوس الثاني بن سوس بالحكم، تحت مظلة التدخل الروماني على يد بومبيوس مكَنوس[28]. فكان غربُ نوميدية من نصيب بكوس. ويبدو أن كتابة اسم والده على عملته يمثل إشادة باستماتة سلفه في انتزاع حقه المشروع .

أما الملك بكَود صاحب موريطانية في حدودها التقليدية فنسبه مجهول .وهنا نتساءل هل هو نفس الشخص الذي كان يحمل نفس الاسم سنة 81 قبل الميلاد، وقيل إنه ابن الملك بكوس الأول، وقد تواطأ مع بومبيوس مكَنوس ضد الملك النوميدي هيارباس Hiarbas[29]. وثمة ملاحظة حول اسم بكَود كما ورد على عملته بصيغة بكواط BOCVT[30] (الشكل 7). مما يدعو إلى الاعتقاد بوجود علاقة بين اشتقاق هذا الاسم واسم قبيلة البكواطيين Baquates[31].

(27) SALLUSTE., frag., 2,20.
(28) Majdoub, (1998), p. 1324.
(29) ORO., 5,21,14.
(30) Mazard, (1955), n° 103-6.
(31) مجدوب، 1990، ص. 175. حول الصيغة الأمازيغية لأسماء الملوك الموريين انظر: مجدوب، (2004)، ص. 420-423.

وآخر إشكال يرتبط بفترة ما بعد بكوس الثاني، التي اصطلح الدارسون على تسميتها بفترة فراغ العرش. فالغالب على الظن أن القائد الروماني أكتافيوس Octavius كان يتحكم في مصير كل المجال الخاضع للموريين. وإذا كان قد فشل في ضم هذا المجال إلى الإمبراطورية الرومانية أمام مقاومة الموريين، فإنه نجح في إرساء دعائم عهد جديد من الملكية الموالية للرومان، يحكمها ملك من أصل نوميدي وذو ثقافة مترومنة هو يوبا الثاني Iuba[32].

وفي ختام هذه المحاولة التي تنطلق من عدة افتراضات متفاوتة الأهمية، يُرّجى من البحث الأثري أن يكشف عن وثائق جديدة، وخاصة النقائش التي مازلنا نفتقر إليها بالنسبة لواقع المملكة المورية.

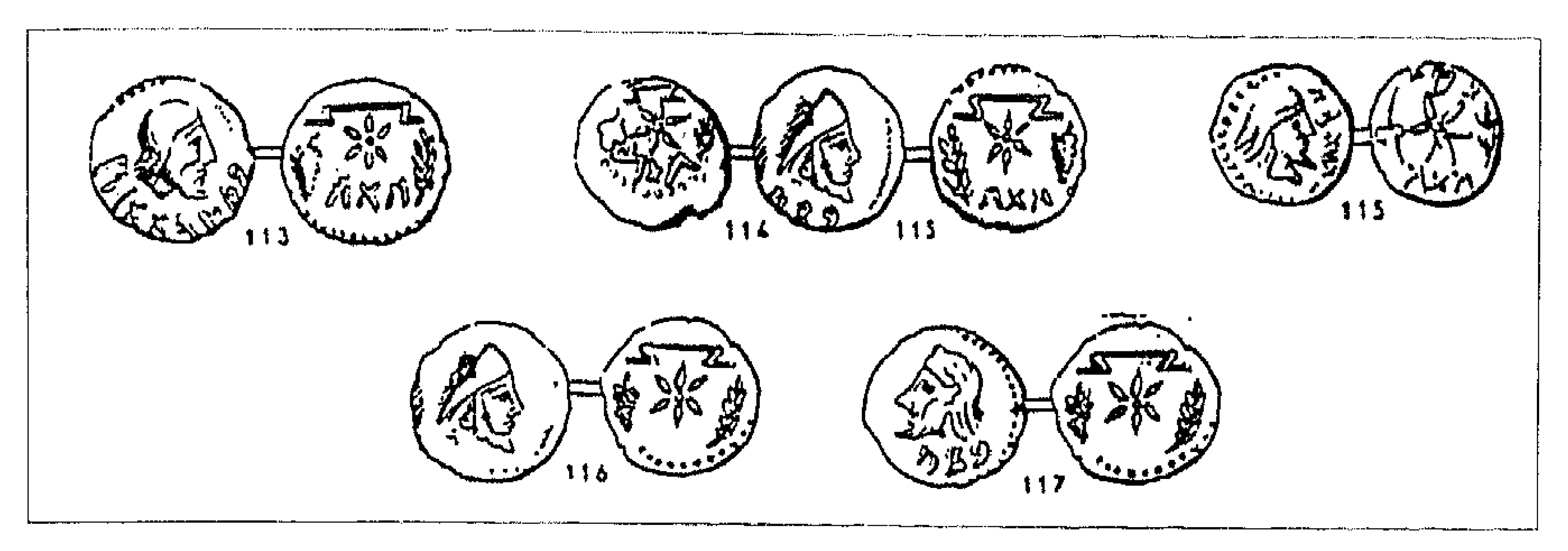
المـراجـع:

- محمد مجدوب، (1990)، **مملكة الموريين وعلاقاتها مع رومة لغاية سنة 33 ق.م**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، مرقونة.
- نفسه، (1992)، **العملة الملكية في المغرب القديم**، بحوث، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، العدد 5، ص47-60
- نفسه، (2004)، **من المكتوب إلى الشفوي: تنقيبات عن الكلمات الأمازيغية في مصادر التاريخ القديم**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الندوات، 4، ص. 413-432 .
- Berthier, (1956), Berthier et Charlier, ***Le sanctuaire punique d'Elhofra,*** Paris.
- Camps G., (1970), ***Sosus ou Mastanesosus roi de Maurétanie*** 80? à 49? av. J-C, dans Encyclopédie berbère, édition provisoire, 5, p. 1-6.
- Idem, (1984), ***Les derniers rois numides Massinissa II et Arabion,*** dans B.C.T.H., N.S., 17 B, 1981, Paris, p. 303-10.
- Gsell S. (1912-28), ***Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,*** tomes

(32) Majdoub, (2000), p. 1733.

5 et 7, Paris.

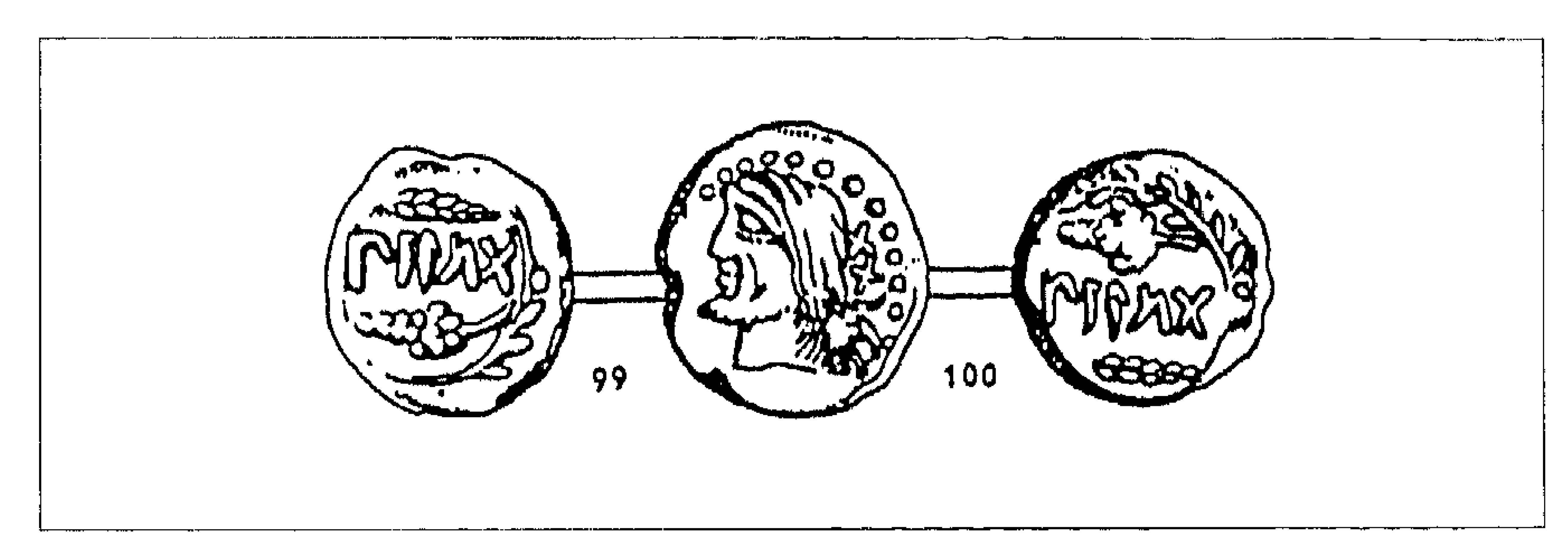
- Majdoub M., (1992), ***Les luttes du début du 1^{er} s. av. J-C au Nord de la Maurétanie,*** dans Collection de l'Ecole Française de Rome, 166, p. 235-8.
- Idem, (1996), ***La Maurétanie et ses relations commerciales avec le monde romain jusqu'au 1[er] s. av. J.-C.,*** dans Africa Romana, 11, p. 287-302.
- Idem, (1998), ***Pompeus Magnus et les rois maures,*** dans Africa Romana, 12, p. 1321-8.
- Idem, (2000), ***Octavius et la Maurétanie,*** dans Africa Romana, 13, p. 1725-37.
- Idem. (2001), ***La Maurétanie et Carthage,*** dans "IV Congreso internacional di Studi Fenici y Punici", Cadiz, p. 1217-21.
- Makdoun M., (2000), ***La maison de Dionysos et des quatre saisons et la maison des bains des Nymphes: problème de mitoyenneté et de chronologie,*** dans Africa Romana, 13, p. 1703-23.
- Marion J., (1960), ***Volubilis balles de fronde estampillées du 1[er] s. av. J.-C.*** dans B.A.M. 4, p. 488-90.
- Mazard J., (1955), ***Corpus Nummorum Numidiae Mauretanaeque***, Paris.



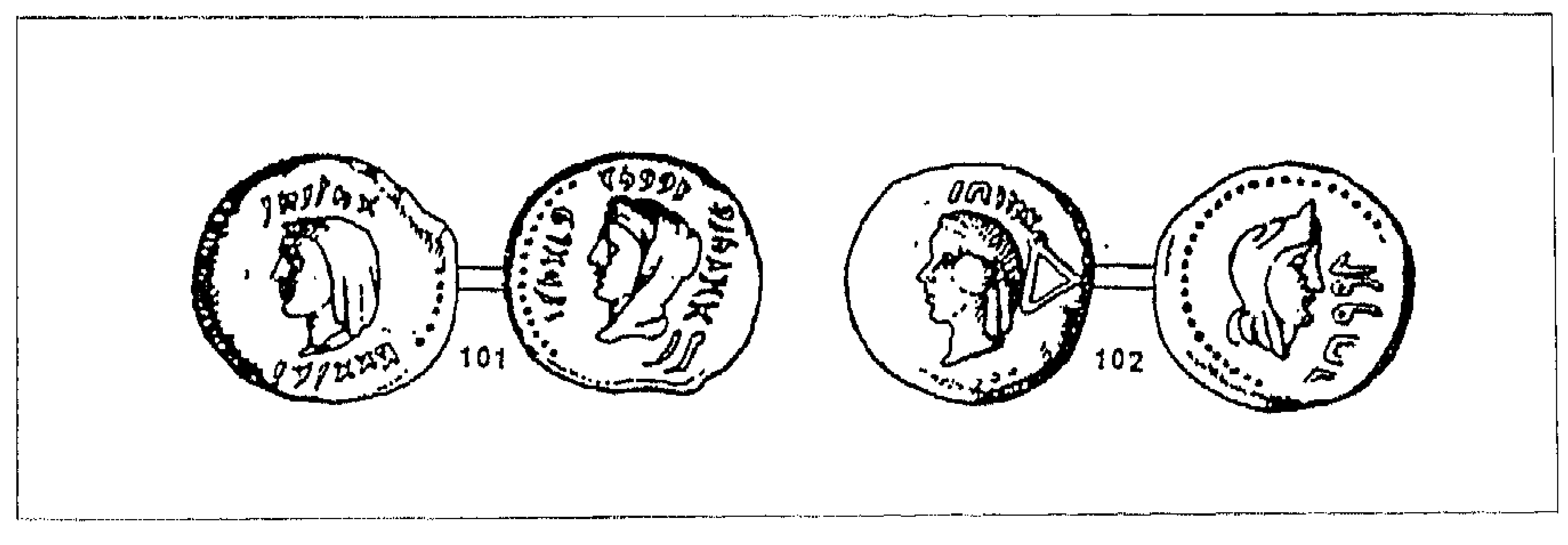
(الشكل 1) : الملك بكوس الأول قبل حرب يوغرطة



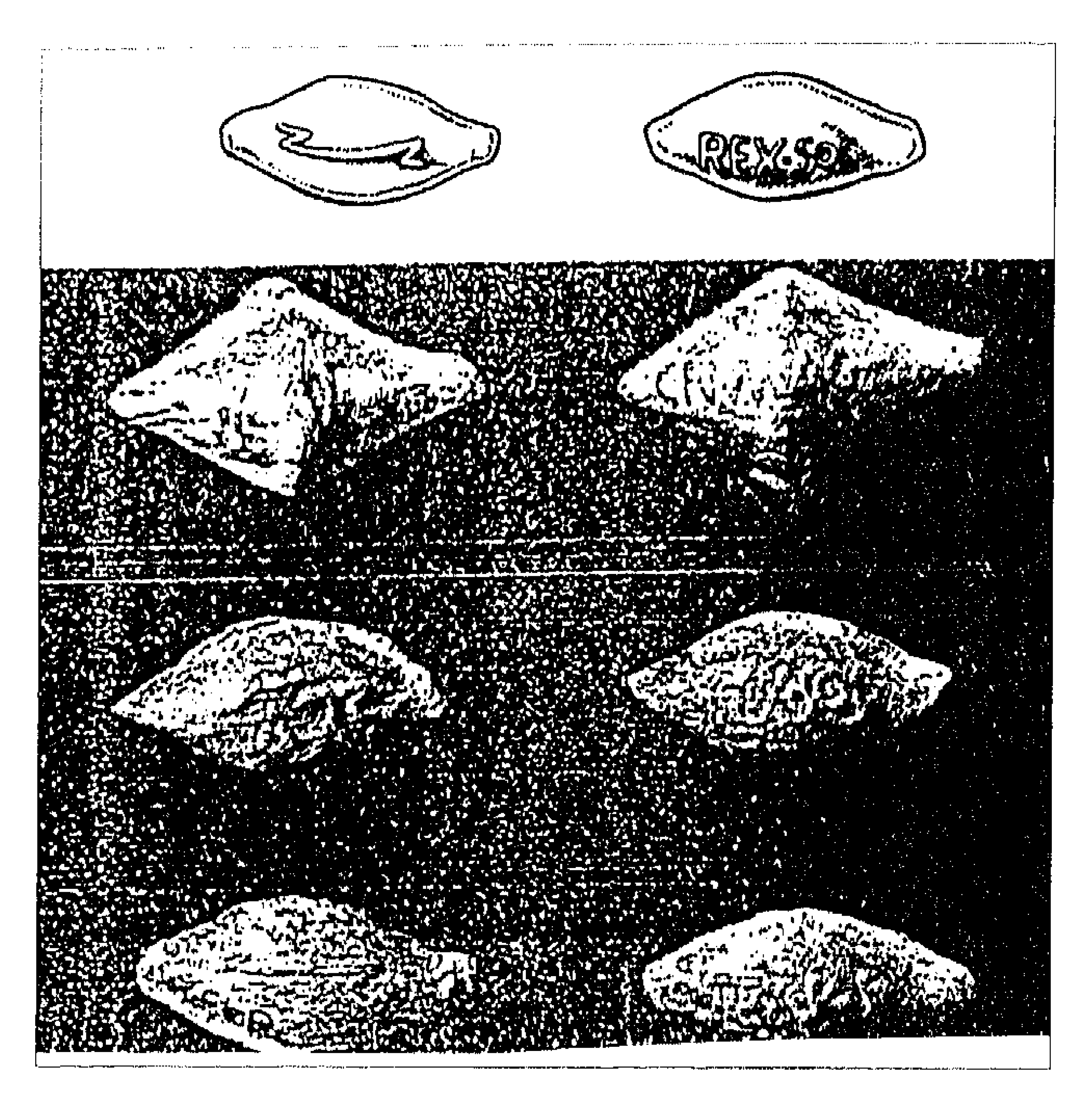
(الشكل 2) : الملك بكوس الأول بعد حرب يوغرطة



(الشكل 3) : الملك مستنس



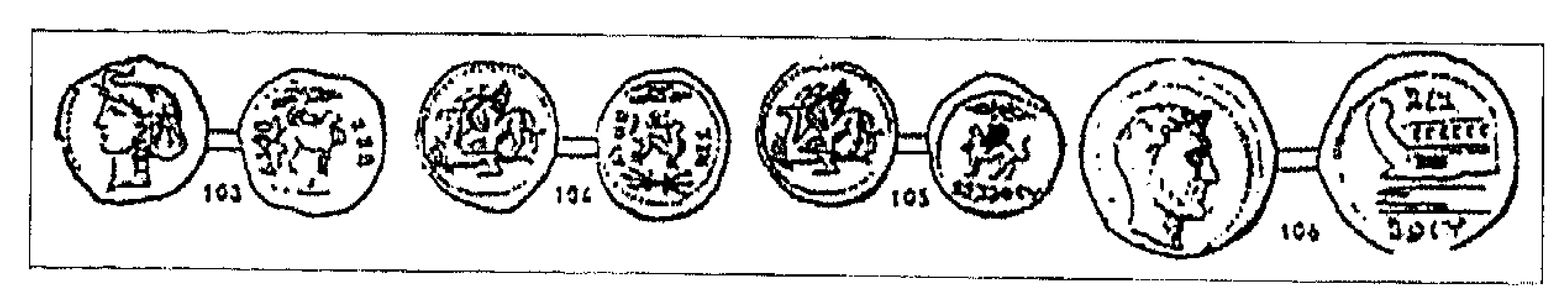
(الشكل 4) : الملك مستنسن



(الشكل 5) : الملك سوس



(الشكل 6) : الملك بكوس الثاني



(الشكل 7) : الملك بكود

تاريخ الممالك الأمازيغية: القراءة والتأويل

ذ. عبد العزيز أكرير
كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
بني ملال

مقــدمــة :

تهتم هذه المداخلة بجانب مهم من عمل المؤرخ، وهو تلقي وتأويل المادة التاريخية. وقد اخترنا التطرق لهذا الموضوع نظرا لما حققه الاهتمام به في مجالات معرفية أخرى من تقدم ملموس، مثل الآداب وعلوم الأديان، ولإيماننا بالفائدة التي يمكن أن يسديها تناول هاته المسألة في وعي الأحداث التاريخية، وفهم سياق تطورها.

ولهذا سنركز على مسألة القراءة والتأويل باعتبارهما مفهومين إجرائيين نظريين، ينطلقان ويؤديان حتما إلى الوعي التاريخي الذي يمكننا من إعادة كتابة التاريخ أوتجديده. وإذا كانت القراءة تشكل المرتبة الأولى من الفهم، فإن التأويل يشكل غوصا في النصوص لفهم معناها وإحضاره، وهو ما لا يتأتى إلا باستيعاب تام لصوت ماضي وتاريخية هاته النصوص ومتطلبات الحاضر. وتفيدنا هذه العملية إفادة كبيرة في إظهار العلاقة التي تربط اليوم المواطن المغربي المهتم بالمستقبل بمجموع ماضي بلده، المترابط برباط سلس يكرس عناصر الاستمرارية والاتصال أكثر من عناصر القطيعة والانفصال. وتمكننا من تحويل تاريخ المملكة المورية الأمازيغية إلى تراث مغربي مرتكز في الذهن؛ أي تحويله إلى ذاكرة جماعية مغربية.

فالتاريخ، وينبغي أن نعترف بذلك، هو ميدان خصب لتعدد القراءات والتأويلات، وهو ما يكسبه أهميته ويغنيه، غير أن هاته القراءات والتأويلات ترتبط دائما بسياقاتها العلمية والسياسية. ولهذا فالكشف عن هاته السياقات وخصوصا السياسية، مهم، لأنها هي التي تتضمن الأهداف الدفينة المحركة للكتابة وللتأويلات وللفرضيات والنظريات. وهو الأمر الذي دفع أحد أبرز المؤرخين المغاربة الذين اهتموا بتاريخ المغرب وهو الأستاذ عبدالله العروي إلى التأكيد على أن سر توالي النظريات يوجد في النوايا السياسية أكثر مما يوجد في تقدم العلوم الموضوعية.[1]

فأي هدف إذن غير هذا الهدف يمكن أن نسطره في التعامل مع تاريخ الممالك الأمازيغية وضمنها المملكة المورية، حتى نتمكن من كتابة وتقديم هذا التاريخ بنظرة وطنية.

1 - التأويل (Interprétation) والوعي التاريخي:

يمكن القول إن الوعي هو الذي يميز الإنسان، وأن تملك المؤرخ لهذا الوعي عموما وللوعي بتاريخية حاضره، لا يمكن أن لا يترك أثرا في النشاط الفكري لمعاصريه، لأنه كلما اشتد هذا الوعي لدى المؤرخ كان إمساكه بنبض مجتمعه وحاجياته عموما ممكنا، وقراءته وتأويله للماضي متينا ومقنعا.

وهذا الوعي لا يمكن تمثله بدون حس نقدي وتاريخي، وهو بدوره يقتضي قدرا غير قليل من حدة الذهن والنظر الثاقب، والابتعاد عن السطحية التي تجعلنا نتعامل مع الممالك الأمازيغية، أو مع أية فترة أخرى من تاريخ المغرب، تبعا لمقاييس وحقائق وتقاليد متفق عليها، أو مسلمات فرضت نفسها من كثرة الإحالة عليها وتكرارها في الكتابات الأجنبية التي اهتمت بهذه الفترة. فالحس التاريخي يحيل بشكل أو بآخر إذن إلى الوعي التاريخي المؤمن إيمانا شديدا بالنسبية، ومحاربة المطلقات.

وهكذا فالوعي التاريخي يعني من بين ما يعنيه عدم الاكتفاء بقبول وسماع الصوت الذي يأتينا عبر الوثائق القديمة أدبية أو مادية، أو عبر الكتابات الحديثة،

(1) عبدالله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز العربي للنشر والتوزيع، الدارالبيضاء، المغرب، ص. 38.

على ما هو عليه، بل التفكير فيه، وإعادة وضعه في السياق الذي يجدر فيه لمعرفة القيمة النسبية التي يكتسيها.

وإن هذا التدرج الفكري في التعامل مع هذا الصوت الآتي من الماضي البعيد أو القريب هو ما يمكن تسميته بالتأويل، وهو مفهوم يرتبط أشد الارتباط بالحس التاريخي أولا ثم بالوعي التاريخي ثانيا.

فلا داعي للتذكير إذن بكون خاصية الوعي هي التي تكسب حركة التاريخ معنى، وتساهم في إعطاء المجتمع هويته، وتبث فيه روحا قوية محركة، تحمل آمال الأمة. ذلك أن خاصية الوعي هاته هي التي تمكننا من ضبط تاريخية المفاهيم والفرضيات التفسيرية أو النظريات العامة، وتجاوزها في تناسق تام مع روح المجتمع أو ما يريده في حركية متكاملة دائمة التطور.

وهكذا يمكن أن نقول إن "حركة الوعي" هي المسؤولة عن التغيير الإيجابي والتقدم، وهي في رأي المهتمين بفلسفة التاريخ عبارة عن بدرة تحمل نقيضها، أي أنها تعي واقعها كيفما كان كاملا، باعتباره دائما ناقصا، وهاته النظرة هي التي تولد الطاقة وشحنة التغيير.[2]

وأول خطوة في وعي تاريخ أمة أو شعب أو منطقة من المناطق هي الإمساك بالظروف الخاصة والاعتبارات الذاتية للعصر الذي توجد فيه[3]، انطلاقا بطبيعة الحال من الوثائق وما تتضمنه من معان.

ولهذا من بين ما ينبغي التركيز عليه في تاريخ الممالك الأمازيغية هو فهم وإدراك الأساس السائد لها، أي الوثائق من جهة وكيف تم التعامل معها من جهة أخرى، أو ما يمكن أن نعبر عنه بتاريخية الأفكار المرتبطة بهذا التاريخ. أي الاهتمام بالوثيقة بمضمونها وسياقها. فبدون ضبط هاته المعادلة بين هذين العنصرين يستعصي فهم وإدراك ووعي هذا التاريخ، وبالتالي يستعصي تقديم درس في تاريخ هاته الممالك.

---

(2) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، الجزء الأول :العقل في التاريخ، ترجمة وتقديم وتعليق د. إمام عبدالفتاح إمام. المكتبة الهيجلية، بيروت، لبنان،1981.

(3) نفسه، ص.71.

فكيف نتلقى تاريخ المملكة المورية وكيف تم تأويله؟

فكما هو معروف نتعامل مع تاريخ الممالك الأمازيغية عبر وسائط، وثائق ذات طابع خاص، وتكمن خصوصيتها في كونها وثائق أجنبية خارجية، مكتوبة باللغتين اللاتينية والإغريقية، كتبها مؤرخون قدامى بلغة ليست هي اللغة الأصلية للبلد، أمثال بوليب (Polybe) وسالست (Salluste) وتيت ليف (Tite Live) وأبيان (Appien) وبلوترخوس(Plutarque)، وهم أجانب عن المنطقة التي كتبوا عنها، ولهذا فتاريخ الممالك الأمازيغية ليس تاريخا مباشرا، خلد أبناؤه أحداثه. فهو إذن تاريخ لم يكتب بمنظور محلي، يحمل هموم أصحابه خلال تلك الفترة، ويعكس لنا أفكارهم وروحهم وثقافتهم.

إن المؤرخ الذي كتب تاريخ هاته الممالك هو إذن مؤرخ أجنبي بعيد جغرافيا ووجدانيا وحضاريا عن هاته الممالك؛ حيث ارتبط بالدولة الرومانية المنتصرة، فنظر إلى تواريخ الأمم الأخرى، ومن ضمنها الأمازيغ وممالكهم، باعتبارها تواريخ هامشية، لا يتطرق لها إلا عندما تتقاطع مع تاريخ الدولة الرومانية، فكل من احتفظوا لنا بشذرات من هذا التاريخ، سواء باللغة الإغريقية أو اللاتينية، كانوا يؤرخون لروما ولشخصيات رومانية، خلال حروبها أساسا، أو خلال أعمالها الكبرى.

ولم يختلف الأمر كثيرا خلال العصور الحديثة، التي شهدت بالفعل بداية عصر التدوين بالنسبة للتاريخ القديم بشمال أفريقيا، فالذين اهتموا بتاريخ الأمازيغ خلال هاته الفترة هم كتاب ومؤرخون أجانب، من الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، ولكن بترسانة منهجية قوية، وفي سياق دولي آخر. حيث أقبل هذا المؤرخ بحس ووعي تاريخيين، وبتصور واضح للهدف من هذا التدوين، على إحياء الماضي لخدمة الحاضر، وكان هذا الحاضر هو فترة الاستعمار.

وهو ما أخرج الحادثة أو الأحداث المتضمنة في الوثائق، من الماضي، وجعلها حاضرة بالقوة، وهاته مسألة بديهية فكل الدراسات الحديثة لا يمكنها إلا أن تبث في وثائق "الماضي الميت" حياة الحاضر.[4]

---

(4) نفسه، ص.72.

فالمؤرخ الحديث لم يختلف كثيرا عن المؤرخ الروماني كثيرا، إذ انطلق الأول في تدوين تاريخ مغربي بفلسفة وروح العصور الحديثة الأوربية التوسعية، التي تهيمن فيها الدولة القومية، والثاني عمل بينهما على كتابة تاريخ شمولي تهيمن على أركانه رومة مع ترك هوامش تتسع للشعوب الأخرى. فالأول إذن كان حبيس مركزية رومانية متضخمة، والثاني كما يقول عبدالله العروي كان مقيدا بـ: "ظروف القرن 19 م الأوربي، قرن تكوين الدولة القومية"، وكان سجين مفاهيم محدودة حول الوثيقة والحدث والزمان التاريخي أو التحقيب، ولم يكن مفهومه للتاريخ مفهوما مطلقا.[5]

فقدر التاريخ القديم المغربي، وضمنه الممالك الأمازيغية، هو أنه كتب قديما وحديثا في مجمله من قبل كتاب أجانب، وهاته نقطة مهمة في إطار هذا المركب الذي هو التاريخ، وتكمن هاته الأهمية في استحالة فصل الحدث ليس عن صانعه الأول، قبائل كانت أو مدنا أو ملوكا، بل عن ناقله؛ إذ يصبح الناقل أهم من الفاعل، بل يصبح هو الفاعل والصانع الرئيسي، ولهذا ينبغي دائما أن نولي للمؤرخ وللكاتب أهمية خاصة لتسليط الضوء على هذا التاريخ، خصوصا في شق التأويل.

ففي ظل هاته الحالة المتمثلة في بعد الفترة وفي قلة المعلومات والوثائق وفي كثرة المستبقات والتأويلات المرتبطة بسياقها التاريخي الذي هو العلاقة المتمثلة بين المؤلف والموضوع، ينبغي على المؤرخ المهتم بالممالك الأمازيغية أن ينتزع من الوثائق المتوفرة على قلتها ما تقوله مباشرة وما هو متضمن فيها، ولا تعلن عنه، أي غير معطى بشكل مباشر في المادة، وهنا تتدخل عملية البحث عن المعنى أو المعاني، وليس الفهم المباشر المرتبط بظاهر النصوص، حتى نتمكن من الوصول إلى تأويلات لن تكون، كيفما كان الحال، أكثر جرأة من التأويلات الكولونيالية.

واستنادا إلى ما سبق يتضح أن الأمر يتعلق في هاته الوثائق بمستويين: مستوى داخلي مرتبط بالأحداث والمادة التاريخية، ومستوى ثان خارجي مرتبط بالمؤرخ. ويعتبر التمييز بين هذين المستويين ضروري في عملية التأويل، والتي لا تستقيم إلا إذا اقترنت بالوعي التاريخي، إلى درجة أننا نجد أنفسنا مدفوعين، نظرا لكثرة التأويلات الجزئية والسطحية، إلى التمييز في التأويل نظريا بين:

---

(5) عبدالله العروي، م. س، ص.12.

- تأويل واع، أي تأويل يقوم على حس ووعي تاريخيين، يمكن صاحبه من الإلمام حسب المتاح بالسياق العام والخاص لتاريخ هاته الممالك وغيرها، وبتاريخية النصوص المتوفرة، أي بالخلفية الحضارية لمن كتبوا حولها. لأن كل هذا يؤطر وعي المؤرخ ويخدم تأويله.
- وتأويل غير واع وهو الذي تغيب عنه كل هاته الشروط أو ينقص بعضها، وهو تأويل يكون غير متين، ويمكن لصاحبه نفسه أن يغيره ويبدل فيه مرات عديدة في ظرف وجيز جدا.

فالتأويلات لا تستحق هذا الاسم إلا إذا كانت منطلقة من إحساس وهضم جيد لواقع مجتمعي معين بهمومه وطموحه وتطلعاته، وأيضا للمستوى المعرفي الذي وصله المجتمع من جهة، ومستندة من جهة أخرى على استيعاب جيد لخلفية الوثائق، في حركيتها الذاتية المرتبطة بحركة الفكر والثقافة في المجتمع الذي أنتجها.

ولهذا نلح في هاته المداخلة على أهمية تدريس مادة الهرمونيطيقا (Herméneutique) المنحصرة الآن في حقل الفلسفة والآداب والأديان، أو مبادئ التلقي والتأويل في حقل التاريخ.

2 - نقد الفرضيات التفسيرية التعميمية:

عرف تاريخ المغرب القديم، وضمنه تاريخ الممالك الأمازيغية، ومازال نظريات أو فرضيات تفسيرية كثيرة، ارتبطت أشد الارتباط بالأبحاث التي عرفها المغرب خلال فترة الاستعمار، وعشية الاستقلال، وهي أبحاث كانت تدخل ضمن سياق معرفي وسياسي محدد، فالذين قاموا بالأبحاث هم موظفون فرنسيون وإسبان في الإدارة الاستعمارية، أو مرتبطون بها، ومن بين هؤلاء يمكن أن نذكر أسماء لها مكانتها وشهرتها في هذا الحقل منها ستيفان كسيل (S. Gsell) وليونيل بالو (L. Balout) وجيروم كركوبينو (J. Carcopino) الذين "روجوا باسم العلم الموضوعي تلك الأفكار المشوهة عن ماضي المغرب"[6]

(6) عبدالله العروي، م. س، ص.37.

ومن بين هاته الفرضيات نقتصر، على سبيل المثال لا الحصر، على:

أ - ركود حركية المجتمع وأحواله والضعف الذاتي: يظهر عموما تاريخ المغرب في العصور القديمة لدى الكتاب الأوربيين وهو ينتظر من يأخذ بيده ليخرجه من تخلفه، وفي هذا السياق يؤكد جون ماريون على أن المغرب الموري شكل نقطة التقاء لتيارين، واحد آت من نوميديا خليفة قرطاجة، والثاني من طرطيسوس، وهو أمر طبيعي. فهذين التيارين يستجيبان للتيارين الحضاريين اللذان أغنيا المغرب، وأخرجاه من ظلمات ما قبل التاريخ.[7]

فالتركيز على حالة الركود والاستيلاب الدائمين في تاريخ الأمازيغ نجده أينما ولينا وجوهنا في هاته الكتابات، ويعطينا عبدالله العروي ملاحظة غنية عن كل تعبير حول استغلال التشابه في النصوص الأدبية حول أحوال الليبيين الأمازيغ، ومعيشتهم للقول بأن هذا المجتمع لا يعرف التغيير، ويركز على تشابه هاته الأحوال بين سرد تاكيتوس لثورة تاكفاريناس سنة 17م وحرب يوغرطة 111-105 ق.م، إذ يقول: "نحس ونحن نقرأ تاريخه (تاكيتوس) أنه يستوحي باستمرار من أحكام سالست في ذكر أخبار ثورة يوغرطة، فيظن المؤرخ المعاصر أن لا فرق بين الثورتين، ويستنتج أن أحوال البربر قارة وتاريخهم راكد، ويتساءل حول مدى صحة الأخذ بميل المؤرخين القدامى إلى تقليد سابقيهم برهانا على أن المجتمع البربري نفسه لا يعرف التغيير[8]؟

الإجابة ستكون بالنفي؛ حيث يمكن أن نقرأ بشكل آخر هذا التشابه الذي يسميه العروي بتقليد، باعتباره تشابها غير موجود إلا في النص، أو في ذهن صاحبه، كيف ذلك؟

للإجابة نستقي معطيات أخرى ذات طبيعة مغايرة، أي أنها لا ترتبط بالقبائل، ولكن بشخصيات مورية خلدتها النصوص الأدبية، ويتعلق الأمر بالتشابه في بعض الجوانب، وإلى حد ما، بين بوكوس الأول (Bocchus) وبين بوكوس الثاني، وبين بوكود (Bogud) وبين أسكاليس (Ascalis).

ففي الحالة الأولى تحالف بوكوس الأول مع الرومان وساهم إلى حد كبير في إنهاء مقاومة الأمير النوميدي يوغرطة للرومان وإلقاء القبض عليه سنة 105 ق.م[9]،

(7) Marion, J., Note sur la contribution de la numismatique à la connaissance de la Maurétanie Tingitane, *Antiquités Africaines*, t. 1, 1967, pp. 115-116.

(8) عبدالله العروي، م. س، ص.55.

(9) Salluste, *Guerre du Jugurtha*, Texte établi et traduit par A. Ernout, Paris, Belles Lettres, 1980, CXIII.

وحصل جزاء على ذلك على ثلث نوميديا[10]، وعلى لقب حليف وصديق الرومان. أما بوكوس الثاني فقد تحالف مع قيصر وساهم مساهمة فعالة في الانتصار على الملك النوميدي يوبا (Juba)، وحصل مكافأة له على ذلك على بسط نفوذه على مجال مهم من نوميديا أيضا.[11]

وفي الحالة الثانية ساهم بوكود في الحروب الأهلية وراهن على الفريق الخاسر، ألا وهو فريق أنطوان غريم أوكتافيوس، فثارت عليه مدينة طنجة وفقد حكمه سنة 38 ق.م[12]، وفر إلى الشرق حيث قتل حوالي سنة 31 ق.م. أما أسكاليس فقد ارتبط اسمه بطنجة أيضا، وراهن بدوره على جواد خاسر، ألا وهو القائد الروماني باكيانوس أحد أتباع سولا، فثار عليه رعاياه بطنجة وانهزم سنة 81 ق.م.[13]

فهل هاته التشابهات تدخل ضمن باب الحتمية، وتوفر الشروط والآليات نفسها، مما كان يؤدي إلى النتيجة نفسها، أم مجرد صدفة تدخل ضمن ما يمكن أن نسميه بمكر التاريخ؟ أم تقليدا بتعبير العروي؟

يمكن أن يكون الأمر لا هذا ولا ذاك، بل فقط وجود نوع من الإسقاط لحالات متأخرة على حالات سابقة، قصدها المؤرخون القدامى لملء الفراغات التي يشكو منها تاريخ موريطانيا أثناء تقاطعه مع التاريخ الروماني. وكيفما كان الحال فهذه التشابهات الموجودة في النصوص الأدبية مثيرة للريبة. ولا يمكن الاستناد عليها في بناء فرضيات تفسيرية، من قبيل الركود أو غيره. فأغلبها، وخصوصا ما يتعلق بأحوال المجتمع الليبي الأمازيغي مرتبطة بقلة المعلومات، ونقل الكتاب اللاحقين عن السابقين.[14]

(10) Salluste, CXI, 1.

(11) Gsell, S., H.A.A.N., t. 8, ***Jules César et l'Afrique. Fin des royaumes indigènes***, Hachettes, Paris, 1928, p. 156.

(12) Dion Cassius, ***Histoire de Rome***, trad. Par E. Gros et V. Boissée, Paris, Firmin Didot, XLVIII, 45.

(13) Plutarque, Sertorius, (Sertorius, Eumène, Agésilas, Pompée), Texte établi et trad. par R. Flacelière et E. Chambry, Paris, Éd. Belles Lettres, 1973, 9, 1-5; Gsell, S., H.A.A.N., t. 7, La république romaines et les rois indigènes, Paris, Hachette, 1928, p. 272, n.3.

(14) لا نكاد نجد فرقا بين ما كتبه هيرودوت في القرن 5 ق.م وما كتبه سترابون في القرن 1 م، حيث يشير هيرودوت خلال بداية القرن 5 ق.م بأن المقاتلين الليبيين، الذين شاركوا الجيش الفارسي معاركه ضد الإغريق، "كانوا يلبسون الجلود، ويتسلحون برماح صلبت بالنار" (Hérodote, Histoires, VII, 71) . ويتطرق بسودوسكيلاكس في القرن 4 ق.م في رحلته إلى هاته الرماح المصلبة بالنار، بالنسبة للإثيوبيين المقيمين بجنوب المغرب (Pseudo-Scylas, Périple, 112). كما أن سترابون يتكلم في القرن الأول الميلادي على استعمال الموريين (Maures) لدرقات جلدية، وإلى ارتدائهم لجلود الحيوانات، (Strabon, Géographie, XVII), 3, 7) فهاته التشابهات على ما يبدو توجد فقط في هاته النصوص، أي ناتجة عن نقل الكتاب القدامى عن بعضهم البعض دون إثبات ذلك.

ب ـ الاستيلاب والتأثر الثقافي بالحضارات الوافدة: لعل أخصب ميدان برزت فيه المستبقات الإديولوجية وأحكام القيمة كما يقول الأستاذ محمد المبكر "يتمثل في مقاربة الهستوريوغرافية الكولونيالية لتفاعل سكان شمال إفريقيا مع الحضارات الوافدة عليهم مع الغزاة والمستوطنين الأجانب من شرق البحر المتوسط وشماله. فكثيرا ما يستعمل الباحثون - ومنذ مدة طويلة - مصطلحات التبونق والترومن والتهيلن وغيرها، للتعبير عن التفاعل ونتائجه على الثقافة المحلية."[15]

فمفهوم السلبية والاستيلاب هو المفهوم الطاغي في التعامل مع ابتكارات وثقافة الأمازيغ، وهو ما وضحه بشكل جلي الأستاذ مصطفى أعشي في كتابه جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية[16]. وقد كان لهذا الحكم المسبق، الذي أصبح مقبولا، تأثير كبير على تأويل أي اكتشاف يهم هاته الفترة، فكل ما هو ضعيف ورديء ينسب للأمازيغ وكل ما هو جميل للرومان وغيرهم من الشعوب الوافدة، إذ لم يهضم الباحثون الأوربيون معرفة الأمازيغ لأي جديد، ولكل ما هو مرتبط بالمدينة والتمدن.

ويكفي أن نعطي مثالا على ذلك يهم نقود الممالك الأمازيغية، حيث حصل جدل كبير بين الباحثين حول أهمية هاته النقود ودورها، هل كانت لها قيمة تداولية تجارية باعتبارها وسيطا بين البائع والمشتري، أم كانت تلعب فقط دورا سياسيا لا علاقة له بالتجارة والاقتصاد؟ وأساسا هل كانت استجابة لحاجيات ذاتية، وبالتالي كانت ابتكارا محليا؟

مجملا اختلفت إجابات الباحثين حول هاته الأسئلة وتفسيراتهم، ولكنها عموما ربطت النقود المورية، سواء نقود الملوك أو المدن، بأصلها المحلي، لماذا؟ لأن تقنية ومهارة صناعتها وصانعيها، رديئة وضعيفة[17]، ويتجلى هذا الضعف في فوضوية الأوزان بالنسبة لنفس السلسلة من النقود[18]. والحجة في هذا الصدد لا تعدم

(15) محمد المبكر، المسيحية والترومن في شمال إفريقيا القديم من عهد ديوكلتيانوس إلى الغزو الوندالي (284 م- 429 م)، الجزء1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، 2004، ص.27.

(16) مصطفى أعشي، جذور بعض مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ، مركز طارق بن زياد، الرباط، 2002.

(17) El-Harrif, F.Z. et Giard, J.B. Préliminaires à l'établissement d'un corpus des monnaies de Lixus, dans Lixus, *Actes du colloque organisé par l'institut des sciences de l'archéologie et du patrimoine de Rabat avec le concours de l'école françaises de Rome*, Larache, 8-11 novembre 1989, coll. E.F.R., 166, p. 267.

(18) Marion, J., Les monnaies de Shemesh et des villes autonomes de Maurétanie Tingitane au musée Louis Chatelain à Rabat, Antiquités Africaines, t. 6, 1972, p. 60.

الباحث المتأني ولا تعوزه، حيث استغل جون مازار (J. Mazard) غياب النخلة رمز قرطاجة، والخيل سواء الراكض رمز نقود نوميديا، أو الذي يركبه فارس رمز نقود إيبريا، للقول بضعف التأثيرات الخارجية وأصالة النقد الموري[19].

أما فيما يخص دورها التجاري فقد تم أيضا التأكيد على دورها المحلي[20]، وعدم استجابة سكها لحاجة اقتصادية مرتبطة بتسهيل المبادلات، بل فقط لأسباب متعلقة بالأبهة وبإظهار الملوك لنفوذهم[21]. إذ تم استبعاد كون نقود الملكين بوكوس الثاني وبوكود صدرت لغرض تجاري، فكل ما في الأمر أنها تعكس أهدافا سياسية، وتكمن هاته الأهداف، خصوصا بالنسبة لنقود بوكوس الثاني، في تخليد الملك لذكراه ولقوته بعد أن اعترف به الرومان ملكا على موريطانيا.

ولكن ما قاله مازار وأيضا كسيل حول الدور المحلي وغير الاقتصادي للنقود المحلية، يصعب تبريره بخصوص نقود مدينتي شمش (Shemesh) وتمودا (Tamuda)، التي عثر على أعداد مهمة من نقودهما، وبانتشار مجالي واسع.[22]

هذا وجه العملة الأول، وهو مرتبط بمحلية وأصالة كل ما هو رديء وناقص، أما الوجه الثاني فهو مناقض تماما، حيث تذكر هاته الدراسات بخصوص النقود نفسها وجود تأثيرات أجنبية تهم الجانب الثقافي والتبعية الاقتصادية اعتمادا على الإيقونوغرافيا وانتشار هاته النقود وكميتها.

- ففيما يخص التأثيرات الأجنبية تم الاعتماد على الموضوعات الموجودة على نقود لكسوس (Lixus) وشمش، من قمح وعنب ونجمة وهلال، والكتابة، للقول إن النقود المورية تنتمي بشكل واضح لنفس عائلة نقود ضفتي المضيق[23]؛ أي أن هناك دائرة ثقافية متميزة تضم مدن ضفتي المضيق المغربية والإسبانية، ولكن مع تفوق وهيمنة للضفة الشمالية وخصوصا لمدينة قادش، حسب تحليلات الباحثين

---

(19) Idem, ibid., p. 65.

(20) Marion, J., Note..., op. cit, p. 116; Gsell, S., H.A.A.N., t. 5, Les royaumes indigènes: organisation sociale, politique et économique, Paris, Hachette, 1927, p. 130, n. 4.

(21) Marion, J., Les monnaiesì, op. cit., p. 59; Mazard, J., Création et diffusion des types monétaires maurétaniens, *B.A.M.*, t. 4, 1960, p. 116.

(22) Marion, J., Les monnaies.., op. cit., p. 71.

(23) Alexandropoulous, J., Le monnayage de Lixus: un état de la question, dans Lixus, Actes du colloque..., op. cit., p. 253.

الأوربيين. وهي محاولة لربط شمال المغرب بإسبانيا، ليس ثقافيا فحسب ولكن تجاريا أيضا.

فعلى المستوى الأول يرى جون ماريون اعتمادا على دراسة النقود الموجودة بمتحف الرباط، والنقود التي وجدت جنوب نهر اللكوس باستثناء نقود سلا، أن المغرب الموري يظهر كنقطة التقاء لتيار آت من نوميديا خليفة قرطاجة، وآخر آت من طرطيسوس جنوبي إسبانيا.[24]

ويؤكد هذا الباحث على وجود علاقة وطيدة بين مدن شمال المغرب ومدن جنوب إسبانيا، وتتجلى في كون صورة بعل ملقرت في سكة طنجة قريب من بعل ملقرت قادش[25]، وصورة الإله شوصور فتاح على نقود لكسوس توجد بنقود مدينة مالقة، وصورة النجمة المشعة بثمان خطوط توجد بمالقة أيضا، والسنبلتان في عدة مدن بجنوب إسبانيا، وسمك التن في أبديرا وقادش وسكسي وترادوكتا[26].

وقد خلص ماريون إلى عزل أقصى شمال المغرب الموجود شمال نهر لكوس عن بقية المناطق الأخرى الممتدة جنوبه، وإلى اعتباره نطاقا إيبريا أكثر منه إفريقيا.[27]

ورغم اعتراف بعض هؤلاء الكتاب بالخصوصية المورية فيما يخص الكتابة الموجودة على هاته النقود، والتي نقلتها حرفيا حسب رأيهم مدينة لكسوس وطنجة عن قادش، ولكن بكتابة مختلفة[28]؛ حيث استعملت المدن المورية البونية الحديثة بينما حافظت قادش على اللغة التقليدية التي كانت تستعملها قبل نزول البرقيين بإسبانيا[29]. ورغم إقرارهم بعدم سيادة بعل ملقرت على نقود الضفة الجنوبية للمضيق كما هو الشأن بالنسبة لنقود الضفة الشمالية، وسيادة بدل ذلك للموضوعات البحرية والشمس، فإن هاته الخصوصية بالنسبة لهم لم تمنع السيادة القادشية.[30]

ولمداراة هذا الميل الواضح لربط المغرب بإسبانيا وتبعيته له، يتكلمون باحتشام عن وجود تأثيرات جنوبية شمالية أو عكسية، وتتمثل في وجود رموز خاصة بنقود

(24) Marion, J., Note.., op. cit., pp. 115-116.
(25) Idem, Les monnaies.., op cit., p. 61.
(26) Idem, ibid., p. 66.
(27) Marion, J., Note..., op. cit, p. 117.
(28) Alexandropoulous, J., ibid., p. 253.
(29) Idem, ibid., p. 253.
(30) Idem, ibid., pp. 253-254.

مدن مورية مثل عنقود العنب لوحده أو مع سنبلة بشكل عرضي في بعض مدن إيبريا مثل ترادوكتا على المضيق.[31]

– أما فيما يخص التبعية الاقتصادية، فقد تم التأكيد على قوة نفوذ مدينة قادش تجاريا، والذي لم يقتصر على المضيق بل تعداه بعيدا نحو الجنوب، وهو ما يشير له جون بوب (J. Boube) الذي أجرى حفرياته بسلا، والذي يؤكد على أن النقود التي وجدت داخل الطبقات الأثرية المؤرخة بالقرنين 1 ق.م و 1م، تبين بأن سلا كانت توجد ضمن مجال نفوذ هاته المدينة البحرية القوية، حيث وجد في سلا 55 نقدا، مقابل 37 في تاموسيدا و 18 ببناسا و 10 بوليلي، و 4 بموكادور، فالتجار القادشيون هم الذين حملوا بدون شك، برأيه، الأدوات الإيطالية والإيبرية والمنتوجات الزجاجية المشرقية إلى سلا خلال القرن 1-2 ق.م[32]. فقادش كانت تحتكر حسب هذا الباحث للمعاملات التجارية مع سلا بشكل كبير.[33]

مجملا هاته الفرضيات التي ينعتها جرمان عياش "بالانحراف[34]"، ويسميها عبدالله العروي بـ"ضلالات"، لا يكفي النقد والكشف عن الخلفيات السياسية لتغييرها، فهذا العمل هو فقط تمهيد.[35]

3 - ضبط المفاهيم والمصطلحات:

تشكل المصطلحات والمفاهيم في حد ذاتها بالنسبة لأية فترة من الفترات التاريخية أدوات إجرائية، تساعد على التحليل، وهاته المصطلحات والمفاهيم لا تنفصل بتاتا عما سبق ذكره، أي عن التأويل أو الفرضيات، لأنها هي الوسيلة الحاملة لها، والمكرسة لها في حقل التحليل والنقد. ويعتبر ضبط هاته المفاهيم عمل شاق يحتاج إلى جهد جماعي لنحت المفاهيم وربط المصطلحات بتربتها وزمانها الأصلي الملتصق بالنصوص وحركيتها التطورية، مع مراعاة زمن الباحث ومتطلباته.

---

(31) Marion, J., Les monnaies.., op. cit., p. 66; Mazard, J., Corpus, Corpus nommurom numidiae mauretaneaque, Paris, 1955, n° 568-70, 572-576, 577.

(32) Boube, J., La circulation monétaire à Sala, dans Lixus, Actes du colloque..., op. cit., p. 256.

(33) Boube, J., ibid., p. 257.

(34) جرمان عياش، اتجاه جديد للبحث التاريخي في المغرب، ضمن البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 14، 1989، ص. 29.

(35) عبدالله العروي، م.س، ص. 26.

ومن بين المصطلحات والمفاهيم التي تستوقفنا في تاريخ الممالك الأمازيغية، مصطلح المملكة المورية وموريطانيا. فهل يجوز لنا أن نتعامل مع المملكة المورية كوحدة سياسية، تتكون من مركز ومحيط؟ وهل هناك تطابق أم اختلاف بين هاته المملكة وموريطانيا كوحدة جغرافية طبيعية؟ وهل هناك تطابق أم اختلاف بين كل هذا والمغرب الراهن؟

كثرت التأويلات والفرضيات حول هذا الموضوع، بحيث لا يمكن لأي مهتم بهاته الممالك أن لا يدلو بدلوه في هاته القضية، والسند الوحيد لهاته التأويلات هو الإسطوريوغرافية القديمة الرومانية والإغريقية، ولهذا فالحقيقة التي نتوصل إليها تظل حبيسة هاته الإسطوريوغرافية، وهي ليست حقيقة مطلقة.

فمفهوم المملكة وموريطانيا في الكتابات القديمة اللاتينية والإغريقية مفهوم يتضمن مستويات متعددة سياسية وبشرية وطبيعية، تنعكس فيها كلها نظرة الكاتب الروماني سواء كتب باللغة الإغريقية أو اللاتينية، وهنا يحق لنا أن نتساءل هل مفهوم الحدود مثلا، كان موجودا لدى الموريين أو في موريطانيا، لكي نبحث عن حدود، فإذا كان الكاتب الروماني يتكلم عن حدود فهو يتكلم عنها من منطلق حضارته وبالمنظور الموجود حولها لدى الرومان والدولة الرومانية، التي عرفت الليمس (Limes). كما أن مفهوم المملكة والملكية هل هو نفسه الذي كان موجودا بالفعل في موريطانيا.

ولهذا ينبغي النظر إلى هذا المفهوم بمعنى تطوري حركي، يتسع ويضيق حسب الفترات، يغطي أجزاء من موريطانيا وينحصر عن أجزاء أخرى، ليبقى قسم كبير من زمن ومكان موريطانيا غير مدرك لحد الآن. وبالتالي فكل ما نكتبه هو غير شامل، والوعي بهذه المسألة مهم جدا، لكي لا يتوهم القارئ لهذا التاريخ أن الحقيقة الجزئية التي نقدمها له هي كاملة تامة وعامة.

4 - التجاوز:

سترافقنا الفرضيات والمفاهيم والمستبقات وأحكام القيمة المرتبطة بتاريخ الممالك الأمازيغية لا محالة لمدة طويلة، إذ لا يكفي النقد والكشف عن خلفياتها السياسية

لتغييرها أو إبدالها بـ"تاريخ إيجابي موضوعي"[35]، فهو فقط تمهيد له، لأنه على الأقل يقدم نظرة مغربية لتاريخ الأمازيغ عموما، ولتاريخ الممالك الأمازيغية خصوصا.

كما أن هذا العمل الإيجابي لا يمكن أن يتم بشكل فردي، بل بشكل جماعي، من قبل مجموعة بحث، لا تقتصر على المؤرخين بل تشمل تخصصات أخرى، تكون قادرة على القيام بعمل نقدي تكشف فيه خلفية هاته الأحكام المرتبطة بزمانها وسياقها الحضاري والسياسي .وتقدم نقيضها المرتبط بهاجس داخلي وطني.

وينبغي أيضا لتحقيق ذلك:

- الاهتمام باللغات القديمة اللاتينية والإغريقية، لإعادة ترجمة النصوص القديمة المرتبطة بالمغرب القديم بشكل مباشر، وبدون وساطة الباحث الأوربي، لأنه لكل لغة فقهها ومنطقها، وفقه اللغة هو أحد المداخل الأساسية لقراءة النصوص وفهمها.[36]
- إعداد خريطة عامة على الأقل للمواقع الأثرية المغربية، وللقبائل قبل الفترة الإسلامية، تسهل على التلميذ قبل الطالب أن يتعرف على هاته المواقع.
- إعداد معجم جغرافي تاريخي للأسماء والمواقع القديمة يكون أداة مهمة يعتمدها الباحث والطالب.

وكل هذا في سبيل تركيز الوعي وترسيخه بوجود حلقة مهمة من تاريخ المغرب، قبل الفتح العربي الإسلامي، تشكل إحدى المكونات الرئيسية في تاريخ وتراث بلدنا.

---

(35) نفسه، ص. 26.

(36) حسن حنفي، قراءة النص، ضمن الهرمينوطيقا والتأويل، مجلة ألف، ط. 2، الدار البيضاء، 1993، ص.19.

وحدة شمال إفريقيا القديم
خلاصات تجربة من خلال مجزوءة الاحتلال الأجنبي

ذ. البضاوية بلكامل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية -
الرباط

تعد هذه المداخلة بمثابة خلاصات لتجربة استكملت عامها الثاني بالنسبة لبعض الوحدات، ومن ذلك وحدة شمال افريقيا القديم عامة، وضمنها مجزوءة الاحتلال الأجنبي.

وبديهي أن تحصل مثل هذه الوقفات لتقويم مسار إصلاح تعليمي، وتوكل للأستاذ مهمة التقويم، ولكن الرأي الأحادي يختلف بكثير عن الرأي الشمولي الذي يتجند الكل أساتذة وطلبة ضمن مسلك تاريخ وحضارة[1] على أقل تقدير للتعبير عن مواقفهم وآرائهم.

وهكذا، فمهمة التقويم عسيرة في غياب عدة أطراف معنية وعلى رأسها الطالب، رغم كون قانون 01/00 أعطى الحق لتمثيلية الطلبة في مختلف الأسلاك، وبمجالس المؤسسات والجامعة. من جهتنا، حاولنا تدارك هذا الغياب باستقراء مواقف الطلبة من خلال خلاصات أجوبتهم سواء تعلق الأمر بالأجوبة المرتبطة بالأسئلة المتعلقة بالمحاضرات أو الأعمال الموجهة، كذلك التقارير والأبحاث الاختيارية فجميعها بمثابة محك لمعرفة مدى تجاوب الطلبة مع وحدة شمال إفريقيا القديم بشكل عام ومجزوءة الاحتلال الأجنبي بشكل خاص.

كما هو معروف، تندرج المجزوءة ضمن وحدة شمال إفريقيا القديم، هذا التخصص المتشعب والمتشابك في تركيبه، هو جديد كل الجدة بالنسبة للطلبة، هو

(1) مسلك تاريخ وحضارة هو جزء من 12 مسلكا يتشكلون من 96 وحدة و 288 مجزوءة بالنسبة لجامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط. لقد أتيحت للطلبة إمكانيات لاختيارات واسعة، ولذلك فمن اختار منهم مسلك تاريخ وحضارة فقد كان مقتنعا باختياره وذلك بناءاً على معظم الاستثمارات.

جزء من رباعية تتشكل من تحقيبات كرونولوجية تبتدئ به، وتنتهي عند التاريخ المعاصر. لكن طبيعة التخصص تختلف بكثير عن باقي المراحل التاريخية لعدة اعتبارات وعلى رأسها:

- طول المدة الزمنية التي يغطيها تاريخ شمال إفريقيا القديم، إذ يناهز 90٪ من التاريخ العام للمنطقة؛
- اتساع المجالس المدروس، إذ أن رقعة شمال إفريقيا المعروفة تتضمن أيضا فضاءات ترتبط بها حضاريا؛
- نوعية المصادر التي هي في أغلبها مادية، مع الإشارة إلى كون كمها يختلف من جهة لأخرى، ومن حقبة زمنية لأخرى؛ فمثلا العدد الهام من النقوش والرسوم الصخرية المكتشفة بالصحراء الكبرى وهوامشها يختلف بكثير عن ما عثر عليه بجهات أخرى.
- ارتباط التخصص بلغات قديمة ومعاصرة، مما يطرح قضية المفاهيم والمصطلحات بحدة.

هذه المعيقات لم تمنع من خوض التجربة والانخراط في جزئياتها على أساس أن مبدأ الإصلاح في مضمار التعليم هو مبدأ يتفق عليه الجميع. زاد تهافت الطلبة على الوحدة بشكل عام بما في ذلك مجزوءة الاحتلال الأجنبي كما دل على ذلك عدد الحضور خلال الحصص الأولى التي ناهزت 70٪ (143 من أصل 193 خلال سنة 2003-2004) من المعبرين عن الرغبة في إنجاح التجربة.

كان منطقيا بالنسبة لمجزوءة الاحتلال الأجنبي أن تشهد الحصص الأولى حضور الطلبة منبهرين. أقر جلهم بعدم معرفة أدنى شيء عن المجزوءة بشكل خاص والوحدة بشكل عام، وأستحضر الجملة التي ترددت في العديد من الاستمارات، جاءت على النحو التالي:

"شمال إفريقيا لم ندرسه وليست لنا معلومات عنه". مصادره بدورها غير معروفة لديهم، فمن يعتبره المحدثون أب التاريخ، ونعني بذلك المؤرخ الإغريقي هيرودوت، لا يعني شيئا بالنسبة لجل الطلبة، بل إن الاحتلال المعاصر يحضر لديهم بقوة، ذكر بعضهم حرفيا: "الاحتلال في شمال إفريقيا عرف صراعا بين قوى إمبريالية متعددة هي فرنسا التي كان لها النصيب الأكبر حيث احتلت المغرب والجزائر وتونس، وانجلترا التي احتلت مصر، وإيطاليا التي احتلت ليبيا".

وبذلك لم ينتبه بعض الطلبة لكون مجزوءة الاحتلال الأجنبي رغم تسميتها العامة هي جزء من وحدة، وبما أن وحدة شمال إفريقيا القديم تهتم بالعصور الموغلة في القدم، فطبيعي أن تندرج المجزوءة بدورها ضمن ذلك التحديد الزمني.

على كل، عبر جل الطلبة عن رغبتهم في دراسة مواد الوحدة بشكل عام ومجزوءة الاحتلال الأجنبي بشكل خاص، وبرروا ذلك بقولهم "إنها تساعدهم على معرفة الحضارات القديمة عامة، وحضارات المغرب في عصوره القديمة بشكل خاص..."

لقد تضمنت المجزوءة دروسا نظرية وأعمال موجهة، مراعين أن لا نكرر ما يذكره زملاءنا في باقي المجزوءات. فاخترنا بالنسبة للمعطيات النظرية حول الاحتلال الأجنبي أن نركز على الاحتلال الروماني كأبرز مثال لنوعية الاحتلال وأساليبه دون أن نغفل باقي المحتلين قبل الرومان وبعدهم، ومنهم خاصة المحتلون الوندال والبيزنطيون.

أما الأعمال الموجهة فاتسمت بالتنوع[2] واستدعت تنقل الطلبة إلى فضاءات أخرى كالمكتبات العامة والمراكز الثقافية ومقاهي الانترنيت، وخاصة بالنسبة للسنة الجامعية 2004-2005.[3]

تنوع أساليب التحصيل أذكت حماس الطلبة وحيوتهم، وزادت من رغبتهم في خوض غمار المنافسة الشريفة وذلك بتقديم الملفات المقترحة عليهم وتقارير جميلة شكلا وأيضا مضمونا.

صحيح أن بعض الطلبة اكتفى بسرد المعلومات كما استقاها من الكتب والأنترنيت، ولكن تميز بعضهم الآخر بتنويع مصادر البحث، وتقديم الخلاصات حول ما جمعه. كانت مختلف أساليب المراقبة عند البعض، وهم قلة، بمثابة دين يلزم التخلص منه بأقصى سرعة، وهي عند آخرين باب لاستشراف المستقبل.

ما يلزم الإقرار به هو كون العروض أدت إلى إندماج الطلبة وتكاملهم، وبروز أقطاب تميزوا بالقدرة على الاستنباط والتنسيق. فلم يشتك من غياب التنسيق إلا القليلون. لقد ترسخ مبدأ التعاون بين الطلبة أيضا بالنسبة لوحدات أخرى كما ذكر ذلك بعض السادة الأساتذة.

---

(2) خصصنا السنة الجامعية 2001-2003 للمصادر المكتوبة و2004-2005 للآثار ليتميز كل فوج عن الآخر.

(3) من باب العرفان بالجميل التنويه بالتسهيلات التي حظينا بها سواء من السيد رئيس المسلك أو من أطر وإدارة المركز الثقافي المصري خاصة وأننا شغلنا فضاء المركز طيلة شهر دجنبر 2004.

اعتبرت الملفات التي تكلف بها طلبة السداسي الأول، للسنة الجامعية 2003-2004، حول المصادر الأدبية لتاريخ شمال إفريقيا القديم بمثابة اللبنة التي ارتكز عليها طلبة الإجازة خلال السنة الجامعية 2004-2005.

فإذا كان طلبة السداسي الأول اهتموا بما يناهز 13 مؤلف قديم، فإن طلبة الإجازة غربلوا المعلومات وصنفوها وأضافوا لها، فراكموا المعلومات حول ثلاثين مؤلفا قديما من مؤرخين وجغرافيين... إلخ وتعهدوا بعد مناقشة أبحاثهم بأن يضيفوا لها المستجدات، وينقحوها لتضحى بمثابة أدوات عمل بالنسبة لطلبة الوحدات الخاصة بالتاريخ القديم، ومنها وحدة شمال إفريقيا القديم، ووحدة أركيولوجيا وتاريخ الفنون وشواهد ميدانية على وجه العموم.

وشكلت الأفلام الوثائقية التي تأتت للطلبة معاينتها بالمركز الثقافي المصري، حول الحضارة الفرعونية والآثار ومصادرها وثيقة أجمع كل الطلبة على قيمتها وجدواها واستفادتهم منها[4]. لقد ترددت عبر تقاريرهم العبارات التالية، وهي تخص إما الأفلام الوثائقية أو الخرجات والزيارات الميدانية، حيث ذكروا :

- متعة ثقافية واستفادة شيقة؛
- الفيلم الوثائقي صورة حداثية للحضارات؛
- الزيارات الميدانية تكسر جو الفصل، وتسهل الاستعاب والتلقي؛
- الأفلام الوثائقية تغني المعارف التاريخية بالتعرف على حضارات أخرى؛
- الأفلام الوثائقية تختزن دلالات وإيحاءات تمكن من فهم المحتوى بأدق تفاصيله، بل بأحلى وضوح؛
- الفيلم الوثائقي مرآة وتجسد للحضارة؛
- الفيلم الوثائقي سفر في تاريخ الحضارة من خلال الآثار؛
- الفيلم الوثائقي أهم وسيلة، تخاطب العين والأذن، أو العين والذاكرة؛
- الصورة أقدم تعبير إنساني، وهي أسرع وسيلة لتبليغ الفكرة من الكتابة؛
- الصورة هي عند آخرين وسيلة مراقبة النصوص لتوجيهها.

لا غرابة أن يدعو بعض الطلبة إلى "تسويق الثقافة" عبر الفيلم الوثائقي. ذكر أحدهم حرفيا : "نملك الكثير من تاريخنا العريق، ونفتقد إلى مبادرة تسويق ثقافتنا ليس بالكتاب وحده، بل بالأفلام الوثائقية".

(4) خصصنا لكل فوج فلما خاصا به وآخر للاستئناس بالسمعي-البصري.

لا عجب أن يدعو الطلبة إلى تكرار الزيارات والخرجات الميدانية، ذكر أحدهم: "الخرجة الميدانية مكنت من الإحاطة أكثر ليس بالمجزوءة فحسب، ولكن بمواد المسلك عامة". وقال آخر: "نأمل أن تكون الزيارة المقبلة لمغربنا الحبيب وما يزخر به من آثار، أعتقد أننا لا زلنا نجهل عنه الشيء الكثير".

إلى جانب المراقبة المستمرة[5] شكلت المراقبة النهائية مجسا لرصد التجربة واستخلاص الخلاصات حول أبعادها المختلفة، فدلت الأجوبة على الأسئلة المرتبطة بالمحاضرة على المواكبة إلا استثناءات محدودة. والمثير للانتباه أن تعنون المجزوءة بالاحتلال الأجنبي فلا يتردد هذا المصطلح إلا بنسبة محدودة، عبر أوراق الإجابة 6٪. استعمل الطلبة ترسانة من العبارات التي تستدعي وقفة تأملية، نخص بالذكر منها العبارات التالية: تدخل/توسع/استيلاء/حماية/وضع اليد/هيمنة/سيطرة/تبعية/خضوع/إخضاع/وجود/اكتساح/اجتياح/بسط/سيطرة... إلخ. ولعل عبارة أحدهم تلخص الأمر، وذلك بقوله: "أشكال الاستعمار متعددة، ولكن جوهرها واحد".

لم تمنع مجزوءة الاحتلال الأجنبي الطلبة من الانبهار ببعض الأعلام الذين اعتبروهم رموزا حية، وكان أبرزهم بالنسبة لمعظم الطلبة يوغرطة (يوكَرتن)، فهو بالنسبة لهم :الملك الهمام الباسل /الملك العظيم /ألمع الثوار /البطل القوي /هو الرمز المضيء.

أختم قراءتي في خلاصات تجربة بخلاصة إحدى الطالبات قالت: "أريد أن أقول إني كدارسة لتاريخ شمال إفريقيا القديم لمست تنوعا وتميزا وقيمة تاريخ هذه المنطقة، كمغربية فأنا فخورة بهذا التاريخ".

لا شك أن تجربة الوحدة بشكل عام والمجزوءة بشكل خاص تستحق أن ترسخ. ما يعوز الجميع الدعم البشري والمادي للعمل في إطار مجموعات صغرى لا تتسم بالضغط العددي، لتوسع آفاق الزيارات الميدانية، ولما لا يشارك الطلبة في الحفريات. يلزم أن يكون عدد الطلبة محدودا أو زيادة عدد المؤطرين من مختلف الباحثين يعنون بالميدان ويشكلون صلة وصل بين الكلية والفاعلين الاقتصاديين.

البحث الميداني لن يتحقق بالطموح والآمال بل بالدعم اللوجيستيكي والمادي الفعليين، وشراكة حقيقية وقوية مع الجهات المعنية، ومن ذلك وزارة الثقافة الوزارة الوصية على التراث، ولما لا وزارة السياحة أيضا !

(5) لم نفرد ورقات للأبحاث الاختيارية التي أنجزتها بعض الطلبة، وهي تناهز 1/3.

b - Dans l'art des métaux (bijouterie):

La même permanence dans le temps et l'espace existe dans le travail de l'argent. En effet, les anciens bijoux Touaregs continuent à être fabriqués identiques à eux mêmes, actuellement à Tiznit (fibules, pendeloques et autres)

Ainsi, il s'agit non seulement d'une permanence stylistique dans l'art amazighe mais d'une renaissance de cet art, renaissance que nous devons soutenir à travers notre enseignement à l'université Pour contribuer en effet à cette réhabilitation de la culture amazighe, l'enseignement de l'histoire dispensé dans nos facultés doit être un enseignement rationnel et ouvert, un enseignement humaniste.

IV - Histoire et humanisme:

L'histoire peut être une école de tolérance et d'humanisme dans le sens d'ouverture, d'esprit critique positif opposé à l'obscurantisme qui règne chez certains jeunes de nos jours.

1 - L'histoire: école de tolérance:

L'histoire est souvent considérée comme une école de tolérance, car elle nous fait connaître la diversité et le brassage des cultures et des civilisations. Elle permet ainsi de mieux comprendre l'autre dans sa différence et donc de mieux l'accepter, qu'il soit individu, société religion ou culture.

a - Pour un dialogue des cultures et non un choc des civilisations

L'enseignement de l'histoire doit être revu dans le cadre de la nouvelle réforme de l'Université. En effet, nous devons, sinon réformer, du moins remodeler les mentalités de nos étudiants en leur inculquant à la fois un esprit critique et un esprit de tolérance.

On peut montrer par exemple que les contacts entre des civilisations différentes donnent lieu à une acculturation enrichissante au de la des résistances et des guerres. C'est le cas de la punicisation et de la romanisation dont l'apport a été remarquable malgré son caractère parfois superficiel en Afrique du nord.

Un esprit de tolérance sera développé lors de l'étude de l'expansion du christianisme en Afrique du Nord .On peut, par exemple, à travers cette étude, insister sur les caracteres communs des trois religions monothéistes (les dix commandements).

b - Diversité et non adversité: La diversité et non l'adversité est en effet l'une des caractéristiques des différentes civilisations et il serait opportun de le souligner. De même, on peut montrer le rôle important joué par St .Augustin

B - Saint Augustin, évèque d'Hippone : Les étudiants pourront voir que tout en introduisant le Christianisme en Afrique, Saint Augustin a également facilité l'islamisation du Maghreb.

Ainsi, l'histoire peut être un moyen de lutte contre le fanatisme, l'intolérance, l'obscurantisme et la violence dans un monde ou règnent ces fléaux.

CONCLUSION:

D'un, passé ou l'histoire, la civilisation, la culture amazighe tenaient une place très restreinte, étaient oublies,on arrive à un présent riche de potentialités et d'espérances, un présent ou l'amazighité est revalorisée, réhabilitée, pour aboutir à une renaissance de l'histoire et de la culture amazighe.

Cette réhabilitation pourra s'accompagner d'humanisme dans le sens de tolérance, d'ouverture et de triomphe de la raison pour un monde porteur de paix et de prospérité.

2 - Renaissance de l'art amazighe:

Une renaissance de l'art amazighe est perceptible actuellement dans l'artisanat marocain aussi bien dans le travail du bois que dans l'art des métaux particulièrement la bijouterie.

a - Dans l'artisanat du bois:

On remarque la même permanence de certains motifs géométriques, à travers le temps et l'espace. Ainsi, le même motif, celui de l'hexagramme se rencontre:

- Gravé sur une pierre provenant de la Basilique de Volubilis (2ème siècle ap J.C);
- Sculpté sur un panneau en bois d'un coffre Kabyle (début 20ème siècle).

Et pourtant environ 2000 ans séparent les deux éléments.

Actuellement, ce style de rosace à base de triangle connaît une grande vogue dans le travail du bois sculpté (tables, encadrements, coffres et autres). Nous avons donc là une incontestable permanence stylistique dans l'art amazighe.

De même, le motif de la croix boulée, présent sur certains panneaux de coffre Kabyle du début du siècle, se rencontre, aujourd'hui identique sur des bijoux en argent du sud marocain.

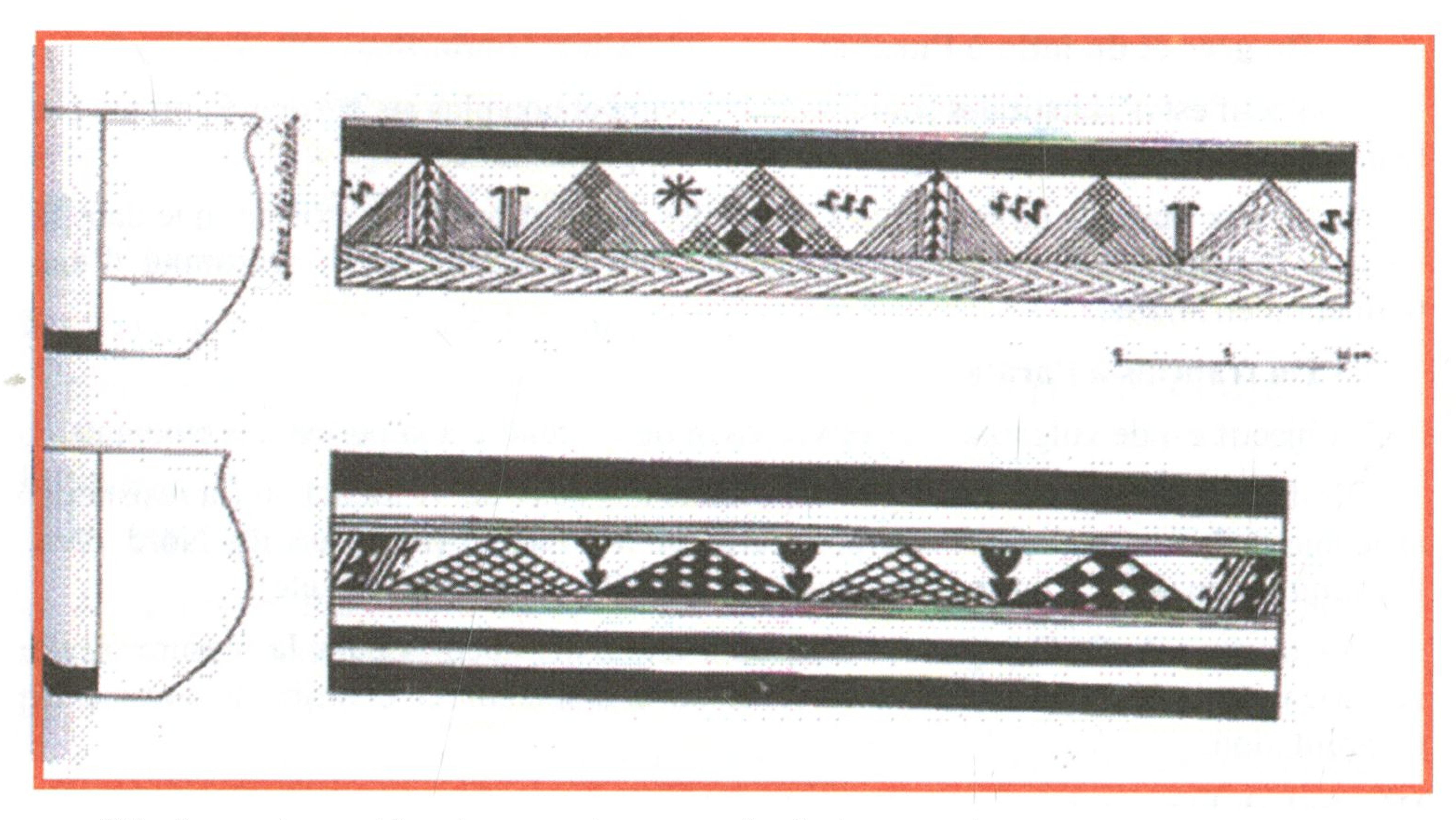


Tapis Amazighe actuel (Taznakt)



Mosaïques romaines de Volubilis





Cf: photos de motifs peints sur des vases funéraires (bazinas) trouvés dans la région de Tiddis en Algérie

On constate que les mêmes motifs de triangle figurent encore de nos jours sur des bijoux en argent fabriqués en Mauritanie ou à Tiznit. Cela plaide en faveur d'une permanence de cet art à travers le temps et l'espace.

b - Permanence à travers le temps et l'espace: mosaïques de Volubilis et tapis amazighes actuels

Un autre exemple de cette permanence est fourni par certains pavements mosaïqués de Volubilis et les tapis actuels. On y retrouve les mêmes formes géométriques et les mêmes coloris qui ont perduré pendant près de 2000 ans.

Bien plus, on assiste de nos jours un engouement remarquable pour cet art.

b - Du grec et du latin à l'arabe:

L'objectif est d'obtenir des sources au 2ème degré et non plus au 3ème degré comme par le passé et d'éviter ainsi les risques d'erreurs supplémentaires.

Quant aux manuels de base et aux nouvelles publications, ils n'existent que dans la version française. (à l'exception du Charles .A .Jullien) D'ou l'opportunité d'une traduction en Arabe.

c - Du français à l'arabe:

L'objectif est de vulgariser ces ouvrages et de les rendre à la portée des étudiants.

C'est le cas de certains ouvrages importants tels ceux de M .Benabou (la résistance africaine à la romanisation), de F. Decret et M. Fantar (l'Afrique du Nord dans l'Antiquité) ou de G. Camps (Massinissa ou les débuts de l'histoire...etc).

Les travaux de G .Camps sont d'ailleurs fort remarquables dans la mesure où ils accordent un intérêt particulier à la civilisation amazighe et contribuent ainsi à sa réhabilitation.

III - Réhabilitation du patrimoine culturel amazighe:

Pour conforter et soutenir le travail entrepris par l'IRCAM depuis sa création, en vue de réhabiliter la culture amazighe, je suggère qu'une place soit réservée à l'étude de l'art amazighe au même titre que l'art islamique ou l'art hispano-mauresque .

1 - Etude de l'art amazighe dans tous ses états:

Dans la plupart de nos facultés, le module "histoire de l'art" est consacré uniquement à l'étude de l'art et de l'architecture islamique. C'est pourquoi il serait intéressant d'y inclure l'art amazighe avec toutes ses composantes et ses caractéristiques

a -Caractéristiques:

On y constate entre autres la prédominance des motifs **géométriques avec tracés rectilignes** à la différence de l'art hispano-mauresque et de l'art islamique où prédominent les motifs floraux et les arabesques

b - Etude des institutions romaines:

Cette étude permettra de mieux comprendre les inscriptions latines avec toutes leurs subtilités. Il serait également intéressant d'insister sur l'importance du legs de la civilisation romaine, présent encore de nos jours.

Ma seconde suggestion a trait à la revalorisation de l'histoire amazighe.

II - Revalorisation de l'histoire amazighe:

Cette revalorisation entre dans le cadre des efforts entrepris par l'IRCAM, depuis sa création, pour dynamiser l'héritage amazighe. On pourrait soutenir cet effort en instituant un module consacré à la Préhistoire de l'Afrique du Nord et du Sahara.

1 - l'Enseignement de la préhistoire de l'Afrique du Nord et du Sahara:

A travers la Préhistoire de l'Afrique du Nord et du Sahara, l'étudiant pourra recouvrer les fondements de son identité culturelle amazighe. Les gravures rupestres présentent à ce sujet un intérêt indéniable

a - Intérêt des gravures rupestres comme substrat de la civilisation amazighe:

Les gravures rupestres, les graffitis du sud du Maroc, de la Mauritanie et du Sahara renseignent sur le genre de vie des premiers habitants de l'Afrique du Nord, ainsi que sur les différents courants de civilisation existant alors. Ces gravures, par leur ressemblance, permettent de sensibiliser l'étudiant à l'unicité des racines de la culture amazighe.

b - Unicité des racines de la culture amazighe à travers le Maghreb:

On peut constater aisément qu'une graphie presque similaire a servi à représenter une civilisation sensiblement identique à travers l'Afrique du nord. On réalise ainsi que l'Union du Maghreb Arabe n'est pas une utopie, car si elle tarde à voir le jour sur le plan politique et économique, elle existe déjà sur le plan culturel.

Pour accompagner ce travail, des visites de sites préhistoriques s'imposent.

c- Visites de sites (préhistoriques):

L'objectif est de rapprocher les étudiants de leur culture ancestrale.

Pour redynamiser cette culture amazighe et son histoire, un travail de traduction s'impose.

2 - Travail de traduction indispensable:

a - Du grec et du latin au français:

Les traductions des sources grecques et latines de l'histoire de l'Afrique du Nord Antique remontent, pour la plupart, aux années 1920, il serait donc intéressant de reprendre ces traductions, de les réviser et de les actualiser, à la lumière des récentes découvertes archéologiques.

Par ailleurs, il serait préférable de traduire directement en Arabe ces sources Grecques et Latines. Car la version française de ces sources n'est pas exploitable par la plupart de nos étudiants qui ne maîtrisent pas suffisamment la langue française. Les enseignants sont donc obligés de retraduire les textes français en Arabe. D'ou la nécessité d'une traduction directe

I - Nécessité d'un enseignement renforcé de l'archéologie à l'université.

Enseigner l'Archéologie à l'Université serait un moyen de compenser les insuffisances des sources littéraires en ce qui concerne l'Antiquité.

On pourrait ainsi inclure dans le cursus des étudiants un module consacré à l'archéologie classique, car il n'existe actuellement dans les Universités qu'un cours d'initiation à l'Archéologie Islamique.

Ces cours seraient enrichis par des sorties sur le terrain.

1 - Sorties sur le terrain:

a - Les sorties sur le terrain permettront de rendre plus proche de nous cette partie si éloignée de l'histoire

b - Elles peuvent être particulièrement **intéressantes pour l'histoire de l'Afrique romaine** car nous avons à Volubilis des vestiges riches, sur un site d'accès facile.

De même que l'étude de l'archéologie classique, l'étude des Inscriptions libyques paraît indispensable.

2 - Etude des Inscriptions libyques:

Cette étude comporterait une initiation à la langue amazighe. En effet, la grande majorité de nos étudiants ne connaissent pas cette langue, car seuls les élèves du primaire et du secondaire ont pu jusqu'alors bénéficier de l'enseignement du tifinagh. .

a - Initiation à la langue amazighe:

Cette initiation permettrait de mieux comprendre les gravures rupestres du Sud marocain et du Sahara et de percer certains de leurs mystères.

b - Intérêt des gravures rupestres:

Elles représentent en effet le substrat de la civilisation amazighe, constituante essentielle de l'identité Nord Africaine.

Outre l'étude des Inscriptions libyques, celle de l'épigraphie latine serait également d'un grand intérêt.

3 - Etude de l'épigraphie latine:

Afin de pouvoir déchiffrer et traduire les inscriptions latines telles que les épitaphes, les ex-voto et autres, une initiation à la langue latine est nécessaire.

a - Initiation à la langue latine:

L'obstacle est celui de la rareté des experts en Latin. C'est pourquoi il serait bon d'exploiter le savoir des latinistes marocains encore présents (race en voie de disparition) qui dispenseraient des cours de Latin, langue morte mais combien utile et formatrice.

Ces cours devraient être obligatoires pour les étudiants devant se spécialiser en Histoire ancienne. Parallèlement à l'initiation au Latin, le cursus universitaire pourrait comprendre un module consacré aux institutions romaines.

les sources épigraphiques ou archéologiques. Les sources littéraires sont en effet peu disponibles

1 - Sources littéraires peu disponibles:

a - Les sources grecques et latines sont épuisées: En effet, le chercheur en Histoire Ancienne est défavorisé par rapport au chercheur spécialisé dans les autres périodes de l'histoire car il travaille sur une matière première pauvre. On ne dispose pratiquement pas de nouvelles sources et celles qui existent ont été largement exploitées; de plus,

b - La traduction française de ces sources est rare dans nos bibliothèques au Maroc à l'exception de la bibliothèque Générale de Rabat et de celle de l'I.N.S.A.P. les bibliothèques des autres villes et facultés du Maroc sont très pauvres dans ce domaine précis ...Par ailleurs, on constate:

c - L'absence totale de traduction de ces sources en arabe or il serait bien plus intéressant d'avoir recours à des sources de première main. D'autre part les sources épigraphiques restent difficiles à exploiter.

2 - Sources épigraphiques difficiles à exploiter:

En effet:

a - Les inscriptions libyques sont en cours de déchiffrement car la graphie amazighe n'a été codifiée que depuis peu de temps.

b - Les inscriptions latines sont difficiles à explorer et à comprendre car le Maroc dispose de très peu d'experts en Latin et en Epigraphie latine.

Quant aux sources archéologiques, elles restent le monopole de l'I.N.S.A.P.

3 - Sources archéologiques, monopolisées par l'I.N.S.A.P, donc peu accessibles. Il est d'ailleurs regrettable que nos universités ne bénéficient d':

a - Aucune Coordination ni coopération avec l'Institut national des sciences de l'archéologie et du patrimoine (I.N.S.A.P). C'est pourquoi :

b - Les Publications de l'I.N.S.A.P telles que BAM, ETAM ne sont pas disponibles dans les bibliothèques de nos Facultés. Or

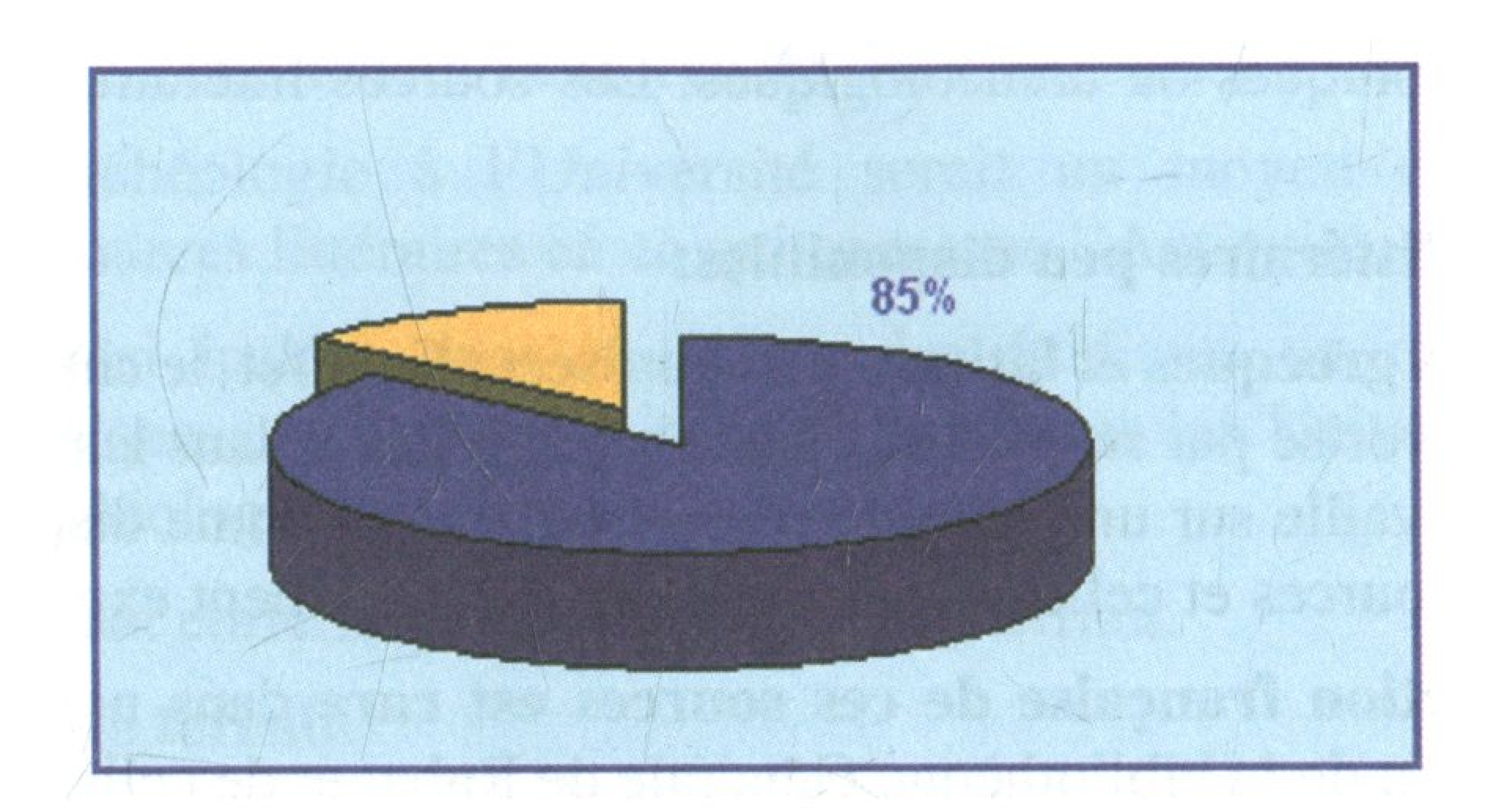
c - L'Archéaologie ne doit pas être considérée comme une fin en soi mais comme un moyen de faire avancer la connaissance historique. Et c'est à juste titre qu'on la désigne sous le nom de «science auxiliaire de l'histoire».

N.B: Il est à noter que certaines de ces difficultés ne sont pas spécifiques aux universités marocaines, mais concernent l'enseignement de l'histoire ancienne en général.

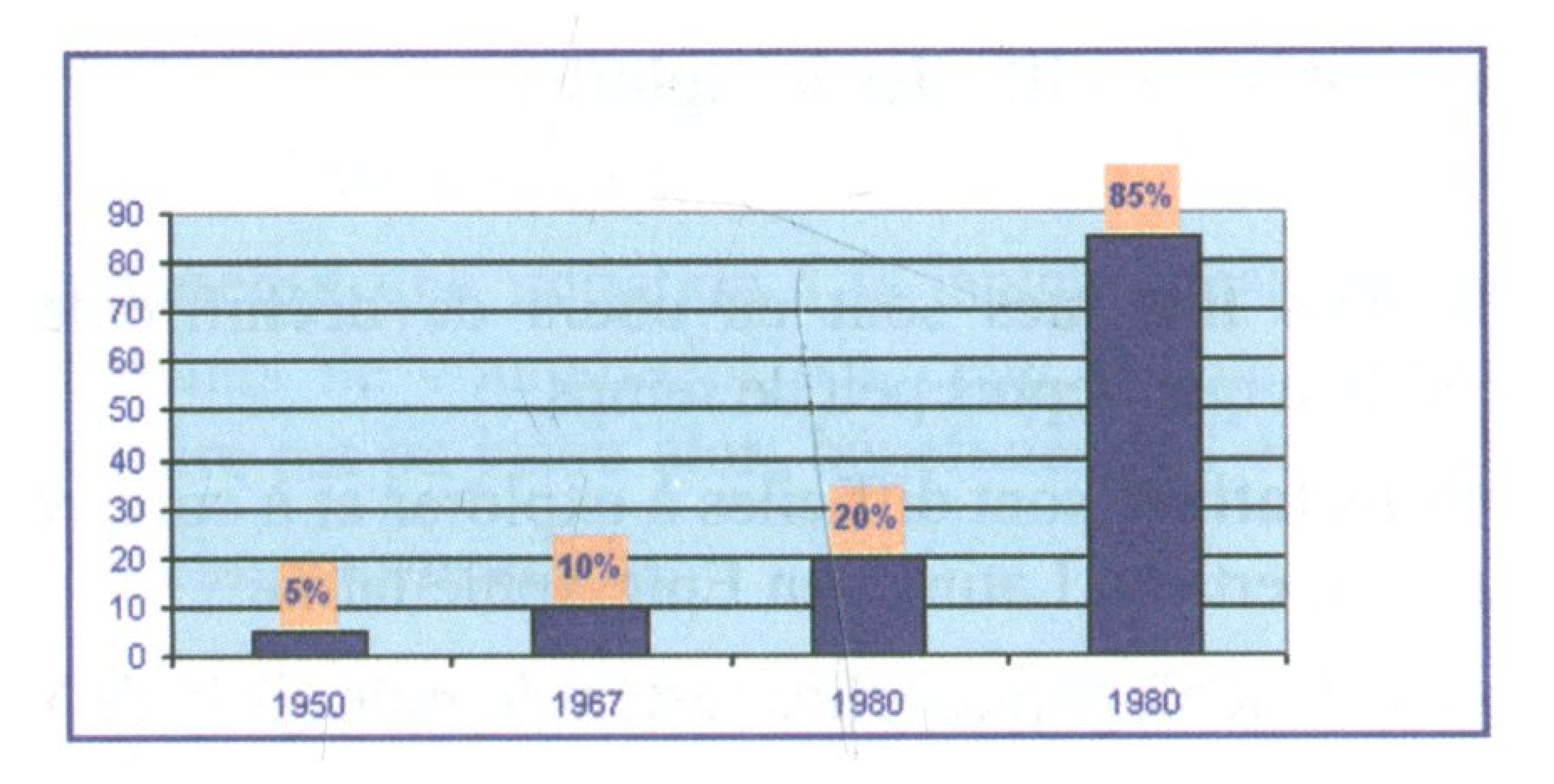
Mais si certaines de ces difficultés ont été aplanies, d'autres perdurent encore .On peut donc s'interroger sur l'existence de solutions, de remèdes possibles. Pour ma part, je me permettrai de proposer quelques suggestions.

B. Suggestions:

Ma première suggestion concerne la nécessité d'introduire l'enseignement de l'archéologie dans certaines universités au Maroc:



On peut constater aisément que, dans le passé, la part consacrée par certaines publications à l'histoire amazighe était faible, mais que l'évolution est favorable, car depuis 1980 et particulièrement depuis la dernière décennie, il y a un regain d'intérêt pour l'amazighité.



On peut s'interroger sur les raisons de cette indifférence des publications antérieures à l'égard de la civilisation amazighe.

2 - Les raisons : L'Amazighité a-t-elle été victime de l'histoire coloniale? Oui en partie, car :

a - L'histoire des Imazighen a été longtemps perçue à travers des civilisations étrangères: Punique, Romaine, Vandale, Byzantine; en effet,

b - ***Les publications*** étaient essentiellement l'œuvre d'auteurs occidentaux. Par ailleurs.

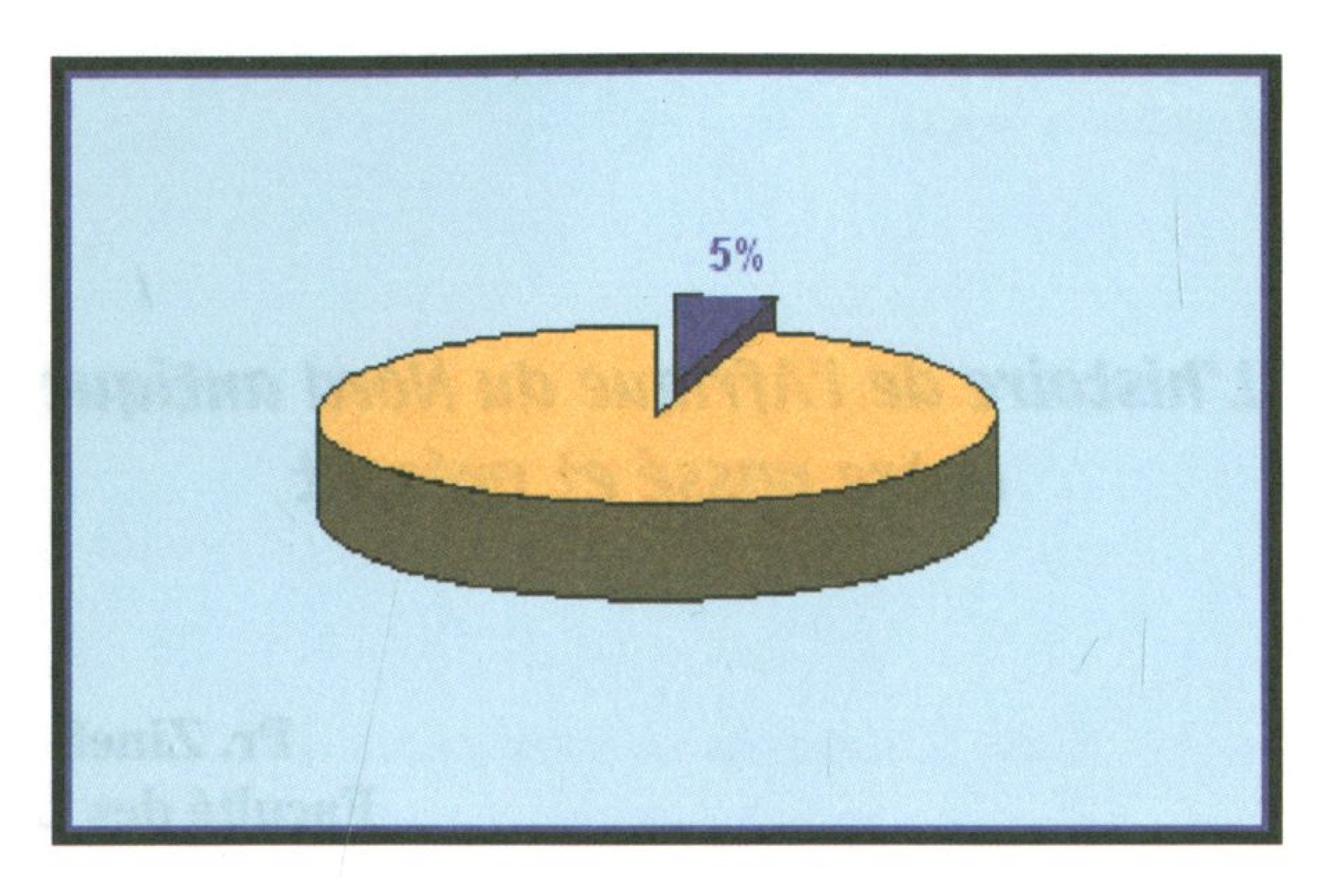
c - **Les sources amazighes sont plutôt rares.**

Cependant, malgré la rareté de ces sources, on assiste actuellement et surtout depuis la création de l'IRCAM à un regain d'intérêt pour la civilisation amazighe.

Outre ces insuffisances du passé palliées en partie, d'autres difficultés se posent encore actuellement, aussi bien à l'enseignant qu'à l'étudiant en histoire Ancienne de l'Afrique du Nord. La plus importante de ces difficultés demeure celle de la documentation.

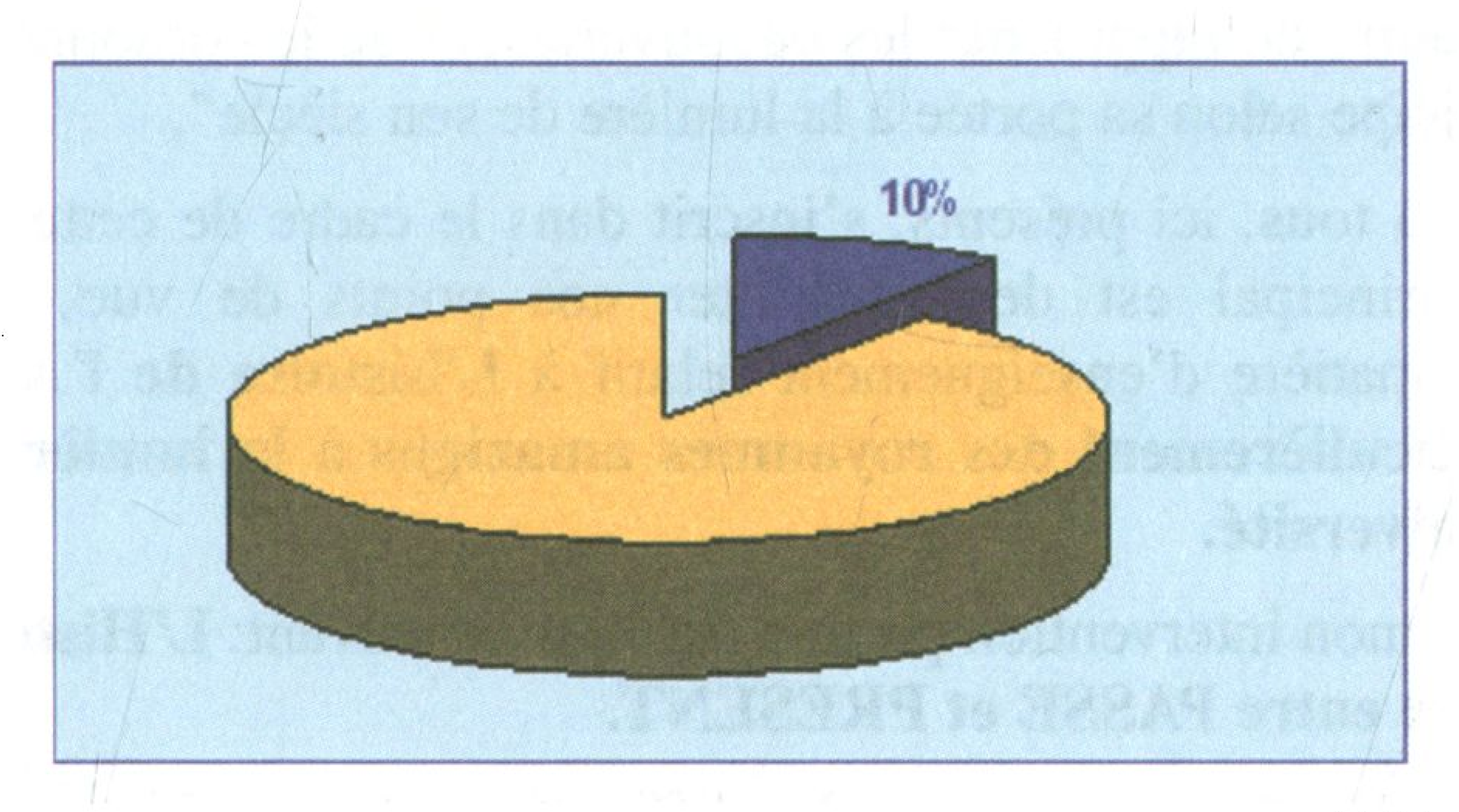
II - Documentation maigre:

Cette faiblesse de la documentation concerne aussi bien les sources littéraires, que



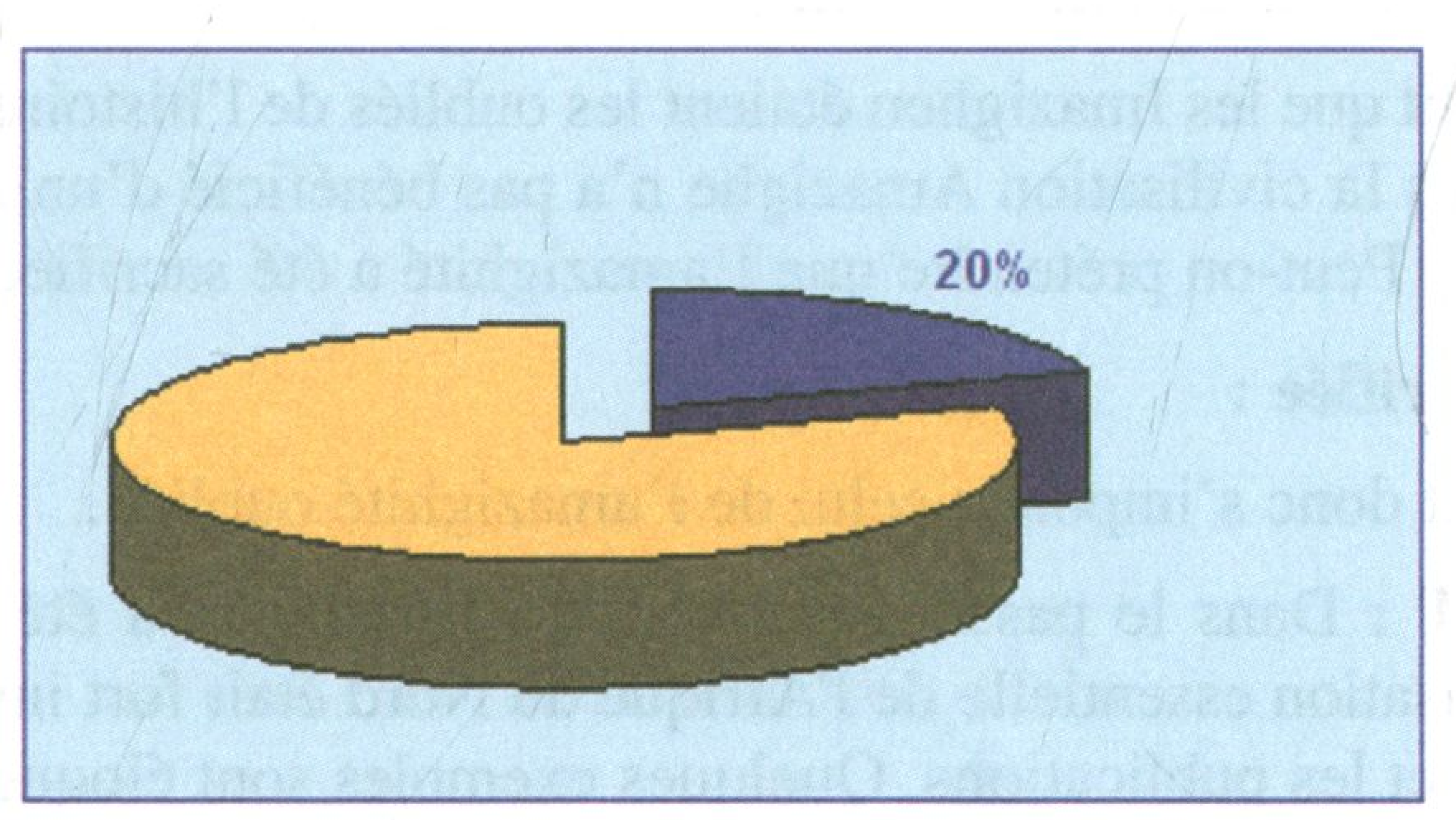
b - B. Boutaleb, J. Brignon et al : *Histoire du Maroc*, **1967**

- sur les 40 pages réservées à l'histoire *Ancienne* 4 sont consacrées à l'histoire *Amazighe* soit environ **10%**



c - F. Decret et M .Fantar: *l'Afrique du Nord dans l'Antiquité*, **1980**

- sur les 350 pages de l'ouvrage 70 sont consacrées à l'histoire *Amazighe* soit environ **20%**



d - G. Camps : *Les Berbères aux marges de l'histoire*, **1980**

220 pages sur 254 sont consacrées à la civilisation amazighe soit environ **85%**

L'histoire de l'Afrique du Nord antique entre passé et présent

Pr. Zineb RAFIH AOUAD
Faculté des Lettes, Ain Chock
Casablanca

D. Diderot a écrit dans sa célèbre **"Encyclopédie"**: "Je distingue deux moyens de cultiver les sciences: l'un d'augmenter la masse des connaissances par des découvertes....l'autre de rapprocher les découvertes, et de les ordonner entre elles afin que chacun participe selon sa portée à la lumière de son siècle".

Notre travail à tous, ici présents, s'inscrit dans le cadre de cette pensée. En effet notre objectif principal est de confronter nos points de vue, nos expériences personnelles en matière d'enseignement relatif à **L'histoire de l'Afrique du Nord Antique et particulièrement des royaumes amazighs à la lumière de la nouvelle réforme de l'Université.**

Pour ma part, mon intervention portera sur le sujet suivant: **L'Histoire de l'Afrique du Nord Antique entre PASSE et PRESENT.**

J'analyserai d'abord les problèmes, les difficultés et les insuffisances rencontrés par le passé et ceux qui existent encore au présent pour l'enseignement de cette partie reculée de l'histoire, puis je présenterai quelques suggestions pour un enseignement réformé et actualisé.

A - problèmes, difficultés et insuffisance :

On a souvent dit que les Imazighen étaient les oubliés de l'histoire. En effet pendant plusieurs décennies la civilisation Amazighe n'a pas bénéficié d'un grand intérêt de la part des historiens. Peut-on prétendre que l'amazighité a été sacrifiée?

I -Amazighité sacrifiée :

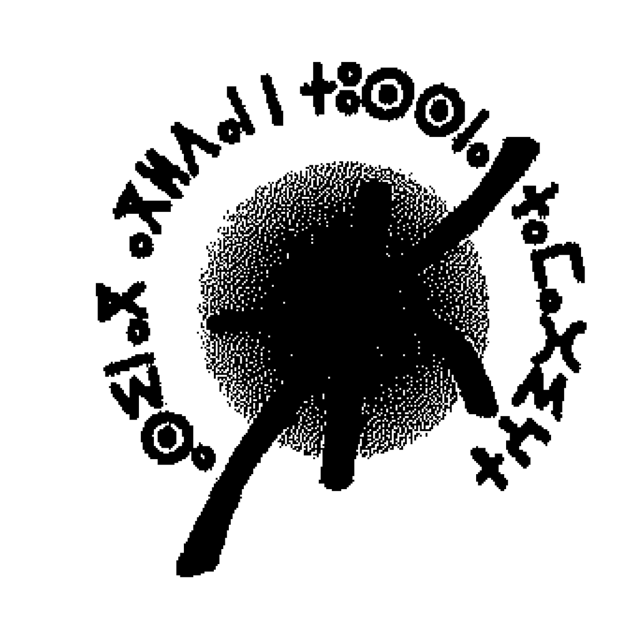
Un constat donc s'impose : celui de l'amazighité oubliée.

1 - CONSTAT : Dans le passé, l'histoire des Imazighen a été négligée. La part réservée à la civilisation essentielle de l'Afrique du Nord était fort insuffisante dans les manuels scolaires et les publications. Quelques exemples sont éloquents à ce sujet:

a - CH. A. JULIEN: *Histoire de l'Afrique du Nord: l'Antiquité*, tome 1, **1950**

- sur les 260 pages réservées à l'histoire *Ancienne* 12 sont consacrées à l'histoire *Amazighe* soit environ **5%** de l'ensemble de l'ouvrage.

ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ
ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ ⴰⴳⵍⴷⴰⵏ
ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ
ⴰⵎⵎⴰⵙ ⵏ ⵜⵖⵓⵔⵉⵡⵉⵏ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴷ ⵜⵡⵏⴰⴹ



المملكة المغربية
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
Centre des Etudes Historiques
et Environnementales

Série Colloques et Séminaires n° 23

L'enseignement de l'histoire ancienne de l'Afrique du nord et des Royaumes Amazighes dans l'université marocaine

ⴰⵙⵙⵖⵔ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⵏ ⵉⵣⵣⵍⵎⴹ ⵏ ⵉⴼⵔⵉⵇⵢⴰ
ⴷ ⵡⵉⵏ ⵜⴳⵍⴷⴰⵢ ⵜⵉⵎⴰⵣⵉⵖⵉⵏ ⴳ ⵉⵣⵎⴰⵣ
ⵉⵇⵙⵓⵔⵏ ⴰⵎⵎⴰⵙ ⵏ ⵜⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵜⴰⵎⵖⵔⵉⴱⵉⵜ

Coordonné : Moustafa OUACHI
Suivi : El Mahfoud ASMHRI

L'enseignement de l'histoire ancienne de l'Afrique du nord et des Royaumes Amazighes dans l'université marocaine

ⵓⵔ ⴷ ⵢⵉⵡⵉ ⵓⵙⴳⵉⴷⴷⵉ ⴰⵎⴳⴳⴰⵔⵓ ⵏ ⵜⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵎⴰ ⵉⴳⴳⵓⵜⵏ ⵉ ⵓⵙⵙⵖⵔ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴰⵇⴱⵓⵔ ⵏ ⵉⵣⵣⵍⵎⴹ ⵏ ⵉⴼⵔⵉⵇⵢⴰ. ⵎⵇⵇⴰⵔ ⵏⵏ ⵉⵙⵔⴽⵛⵎ ⵓⵙⴰⴽⴰ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴷ ⵜⵉⵖⵖⵓⵔⵎⴰ ⵎⵏⵏⴰⵡⵜ ⵜⵎⵢⵉⵡⵏⵜⵉⵏ (ⵜⵉⴳⵍⴷⴰⵢ ⵜⵉⵎⴰⵣⵉⵖⵉⵏ, ⵜⵉⵖⵖⵓⵔⵎⴰ ⵜⴰⴱⵓⵏⵉⵢⵜ ⵏⵉⴼⵔⵉⵇⵇⵉⵢⴰ, ⴰⵙⴷⵓⵔⵔⵉ ⵉⵎⵣⵣⵉ, ⵉⵣⵕⴰⵏ ⵉⴳⴷⵉⵏ, ⵉⴷⵖⴰⵔⵏ ⵉⵔⴽⵢⵓⵍⵓⵊⵉⵢⵏ ⵣⵡⴰⵔⵉⵏ ⵍⵉⵙⵍⴰⵎ) ⵍⵍⵉ ⵣⴹⴰⵣⵏⵉⵏ ⴰⴷ ⵎⵍⵉⵏⵜ ⵎⵏⵏⴰⵡ ⵉⴷⵖⴰⵔⵏ ⴳ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⵏ ⵉⵎⴰⵣⵉⵖⵏ ⵉⵇⴱⵓⵔⵏ ⴷ ⵜⵉⵖⵖⵓⵔⵎⴰ ⵏⵏⵙⵏ, ⵉⵎⵙⵙⵖⵔⴰⵏ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴰⴷ ⵓⴽⵣⵏ ⵉⵏⵏ ⵜⵓⴳⵜ ⵏ ⵜⴰⵙⵙⴰⵙⵉⵏ ⵎⵏⵉⴷ ⵏ ⵉⵡⵜⵜⴰⵔⵏ ⵍⵍⵉ ⵙ ⵜⵜⵍⵍⵉⵏ. ⵉⵚⵃⴰ ⵎⴰⵙ ⴷ ⴰⵢⵍⵍⵉ ⵉⵣⵍⵉⵏ ⵉ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴰⵇⴱⵓⵔ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ ⴰⵎⵇⵔⴰⵏ, ⵍⵍⵉ ⵉⵎⵎⴰⵍⴰⵏ ⵉⵣⵓⵕⴰⵏ ⵉⵎⴰⵣⵉⵖⵏ ⵏ ⵜⵎⵓⵔⵜ ⴰⴷ, ⴰⵔ ⴰⵙ ⴷ ⵉⵜⵜⴰⵡⴼⴽⴰ ⴽⵔⴰ ⵏ ⵡⴰⵜⵉⴳ, ⵎⵇⵇⴰⵔ ⵉⴷⵔⵓⵙ ⴰⵎⵏⵉⴷ ⵏ ⵡⴰⴷ ⴱⴰⵀⵔⴰ ⵉⵜⵜⵡⴰⴼⴽⴰⵏ ⵉ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⵏ ⵡⵉⴷ ⴷ ⴽⴰ ⵣⵣⴰⵏⵉⵏ (ⴰⵎⵣⵔⵓⵢ ⵏ ⵕⵕⵓⵎⵎⴰⵏ, ⵡⵉⵏ ⵍⴼⵉⵏⵉⵇⵢⵢⵉⵏ, ⵡⵉⵏ ⵍⵡⵉⵏⴷⴰⵍ ⴷ ⵡⵉⵏ ⵍⴱⵉⵣⴰⵏⴹⵢⵉⵏ). ⵎⴰⵛ, ⴰⵙⴰⵜⵓⵢ ⵏ ⵡⴰⵜⵉⴳ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴰⵎⴰⵣⵉⵖ ⵇⵇⴰⵏⵏⵜ ⵜ ⵉⴷ ⵙⵓⵍ ⵜⵓⴳⴳⴰⵙ ⴳⴳⵓⵜⵏⵉⵏ ⴳ ⴽⵔⴰ ⵉⴳⴰⵏ ⵜⴰⵙⴳⴰ.

لم يحدث الإصلاح الجامعي الأخير نقلة نوعية بخصوص تدريس تاريخ شمال إفريقيا القديم. فرغم إدراج مسلك التاريخ والحضارة لجزوءات (الممالك الأمازيغية، الحضارة البونية الأفريقية، الاحتلال الأجنبي، النقوش والرسوم الصخرية، المواقع الأركيولوجية ما قبل إسلامية) من شأنها أن تبرز بعض الجوانب من تاريخ الأمازيغ القدامى وحضارتهم، فإن المعنيين بتدريس هذه المرحلة التاريخية رصدوا العديد من الصعوبات التي تحول دون تحقيق الأهداف التربوية والمعرفية المتوخاة من ذلك.

صحيح أن الجوانب المحلية من التاريخ القديم لبلاد المغارب، والتي تبرز الأساس الأمازيغي لحضارة المنطقة، بدأت تحظى ببعض الاهتمام، بعدما طمسها الاهتمام الزائد بتاريخ كل ما هو أجنبي (تاريخ والفينيقيين والوندال والبيزنطيين). لكن تجويد تدريس تاريخنا المحلي القديم وإعطائه المكانة ال يزال في حاجة إلى مجهودات جبارة على مستويات عدة.

21 DH